

القسم الثاني

حضارات الانسان في الشرق الأدنى

المقدمات

بالرغم من اللقاءات التي لا يخطر ببالنا قط اسدال الستار عليها - ومن الجلي ان كل تصنيف يخطئ ، حين يبسط ، ويضحى بالكثير من التفاصيل - فان هنالك ، في المهود نفسها ، ابتداء من الالف الثالث قبل المسيح ، حضارات تتميز عن الحضارات الامبراطورية التي جرى استعراضها في الفصول السابقة .

ارتبطت الحضارات الامبراطورية كلها بدول اتسعت رقعتها وارتفع عدد سكانها وفرض وجودها ، واجبات نافذة في كل من التنظيم الاداري والتنظيم السياسي ، وتوجب عليها تأمين سبل العيش لمجاهير غفيرة وتوجيه وتنسيق نشاط اعضائها الاقتصادي سعيًا وراء هذا الهدف ، كما حدث في مصر مثلاً . ومهما يكن من الامر ، فان هذه الدول ، العظيمة بمساحاتها الشاسعة وبارتفاع عدد سكانها ، والمعرضة ، من حيث هي دول برية ، لاطباع وتهديدات جيرانها الذين تقلقهم تارة ويقلقونها اخرى ، والمجرورة جراً الى حروب لا تستطيع ان تحجم عن خوضها ان هي لم ترض بالزوال ، قد واجهت مشاغل عسكرية خطيرة لم تنسج جن كابوسها الا مصر وحدها لمدة طويلة . وهكذا تضافرت فيها اسباب مختلفة ادت الى اعلاء شأن وسلطة ملك يسمى فوق المستوى البشري قد يؤله احياناً ، والى انصهار الفرد في جمهور الرعايا . ان هذه الحضارات لم تستهدف الانسان بل الدولة المتمثلة بشخص الملك .

اذا ما اخذنا بعين الاعتبار القوة التي بلغتها هذه الامبراطوريات والنفوذ الذي تمتعت به بفضل هذه القوة ، يصبح من الطبيعي الا نرى حضارات معاصرة تعتمد مثلاً على آخر ، او تفكر به مجرد تفكير فقط . وبالحقيقة ، ان « النزعة الانسانية » التي حررت الفرد فاناطت بالدولة مهمة مساعدته في قفتح كيانه المادي والروحي ، لم تبرز ، بشيء من اللاوعي ، الا بعد زمن ، ولم تحظ بالفوز الا بعد زمن اطول ، عاجزة في التاريخ القديم عن ارساء فوزها على اساس وطيده ودايم . ولكن المهم في ذلك ليس عدم الاكتمال وعدم الاستقرار ، بل تلمس جرثومة على الاقل ، هنا وهناك ، مصيرها الاجهاض حيناً والنمو حيناً ، وسماح صدى آخر مختلف ، حتى ولو تضعضع في غير مكان ، او انطفأ ببعض السرعة . ولكن استعلاء هذه المقدمة ليس بالامر اليسير . فقد تختلف

جوهرأ وتكون سياسية او اقتصادية هنا ، او اخلاقية او عقلية او فنية هناك . وقد يحدث احياناً كثيرة الا يكون هنالك شيء ملموس ، فنجد انفسنا امام دلائل لا امام حقائق ، او امام وريث بعيد يشوّه الارث الذي انتقل اليه . ولكن لا نهتمن للامر ، بل فلنمسك بالفارق الذي تضفي عليه دقته قيمة كبرى .

وبودنا ان نجد خطوطاً اخرى مشتركة بين هذه الحضارات التي صنفناها على حدة، ولكننا لا نكتشف الا خطأ واحداً ، جديراً بالتالي ببعض الاعتبار ، وهو ان جميع هذه الحضارات قد نمت في كنف شعوب تؤلف جماعات اقل عدداً من تلك التي الفتها الشعوب الامبراطورية ، وتقيم في رقعة اصغر مساحة ، ويعيش بعضها في مناطق مختلفة لا تخضع لوحدة سياسية . وهي لم تواجه ، بصورة عامة ، معاضل تنظيم ملحة ، وقد عاجلت ما واجهته منها بحلول غير عسيرة . وقد اضطرت الدولة بحكم الضرورة ، في غالب الاحيان ، الى التراجع عن المطامع الكبيرة ، فوقفت من هذه المعاضل موقفاً حكيماً ، حاصرة مطالبها ومطلقة للانسان حريته في العمل . اجل ، قد فرض عليها التهديد الخارجي ، احياناً ، تعبئة جميع قواها الشعبية ، متجاوزة في ذلك محاولات اعظم الملكيات شأنًا ، ولكنها سلكت حينذاك اوفق السبل امامها ، اعني التوجه المباشر الى الفرد وارتيقاب الحصول ، ولو جزئياً ، من قبوله الاختياري ، على ما يعجز اي قسر عن تحصيله . وهكذا تخرج الدولة والانسان ، من هذه الازمات نفسها ، اوثق ارتباطاً وتضامناً . يصح تطبيق هذه المحاولة التحليلية على اليونان بنوع خاص . ولا يزال من المستهجن تطبيقها ، كما وردت ، على حضارات الدول الصغيرة التي سنستعرضها استعراضاً سريعاً في الصفحات التالية ، لان الغموض ما برح يكتنفها بظلمته . ويجوز لنا الاعتقاد بان الصلة التي تقوم بين واقع الدولة الصغيرة وبين بعض الفوارق الحضارية المعينة ، قد تقابل حقيقة ثابتة ، اذ اننا رأينا ، في حالة خاصة نعرفها تماماً ، ما يبرر منطقياً قيام هذه الصلة . او ليس من الممكن ايضاً ، والحالة هذه ، ان تكون هذه الصلة قد قامت في غير مكان ، بكثير او قليل من الاسترخاء ؟

الفصل الأول

الحضارة الأيجية

قد يبدو غريباً ان نفرز للحضارة الايجية فصلاً خاصاً في سلسلة الفصول التي سنسندھا الى هذه المحاولة . ولكننا نعتقد مع ذلك بان لهذا التصنيف ما يبرره . فبالرغم من ان الكلام عن «الامبراطوريات» عند الايجيين تقليد موروث وامر مشروع ، فليس المقصود بها سوى دول صغيرة يكاد مجموع مساحة اراضيها لا يذكر اذا ما قورن بالامبراطوريات البرية الكبيرة ، ولا تعرض السيطرة التي بسطتها هذه الدويلات على البحر عما تتصف به من تواضع نسبي . والمقصود ايضاً هو حضارة يرتبط نشاطها الاقتصادي الرئيسي ارتباطاً متيناً بالتجارة؛ وخصوصاً بالتجارة البحرية التي تترك للانسان ، او لفرق صغيرة من الناس ، استقلالاً اوسع من ذلك الذي تتركه الزراعة ، لا سيما في المناطق التي تقتضي رياً منظماً . وقد عبّر عن هذه الحضارة ، من جهة ثانية ، فن اكثر انفلتاً وعفوية من فنون الشرق القديم جميعها ، حتى عندما اوجبت على الفنانين معالجة بعض المواضيع الملكية او الدينية . وهي قد تركت اخيراً للحضارة اليونانية ، التي كرس ازدهارها اللاحق انتصار الفردية ، تراثاً اهم من تراث الشرق او اسرع نضجاً على الاقل ، بفضل المجاورة الجغرافية والتنضيد الجغرافي احياناً .

١ - وحدة الحضارة الايجية وازدواجيتها

الحضارة الايجية واحدة ومزدوجة معاً .
العهد الكريتي ولدت في كريت ، اكبر جزر البحر المتوسط الشرقي ، وهي الجزيرة الوحيدة التي تتغلغلها بعض السهول وتنشط فيها بالتالي الاعمال الزراعية . وعلى الرغم من جودة مناخها ، فان الانسان لم يظهر فيها الا بعد ظهوره في مناطق الشرق الادنى الاخرى برمن طويل ؛ ولم يترك في الواقع اي اثر قبل عهد الحجر المصقول ، في حال ان آثار عهد الحجر المشطوب وافرة جداً في مصر وفلسطين وبلاد ما بين النهرين . وهي لم تسجل ، طوال قرون عديدة ، اي تقدم على ارخبيل السيكلاد . اهلت ، وهذا الارخبيل ، بالعنصر البشري نفسه الذي يغلب ان سواحل

آسيا الصغرى اهلت به ايضاً ، وهو عنصر لا يمت بصلة الى العناصر المعروفة الكبرى واطلق عليه لذلك لقب «المتوسطي» . فالأحرى بنا ، كي نفسر هذه المقابلة ، ان نفكر بسهولة الملاحظة بين جميع اجزاء هذا العالم الايحي الذي تنتثر جزره هنا وهناك وتكثر فيه الاجوان والخلجان وتهب عليه ارياح منتظمة في فصل الصيف . بيد ان جزيرة ميلوس وحدها ، في مجموعة السيكلاد ، حوت طبقات وافرة من حجر بركاني اسود اشبه بالزجاج (الاوليسيدن) توفر بيعه وتصريفه صفائح رقيقة دقيقة الزوايا ، ولذلك ربما كانت في البدء اكثر ازدهاراً من جزيرة كريت . ويصح القول نفسه عن جزيرة قبرص الغنية بالتحاس الذي عرف باسمها والقريبة من آسيا التي كانت حضاراتها بمثابة المرشد لها .

اما كريت فلم تأخذ في البروز الا في النصف الاول من الالف الثالث ، اي قرونًا طويلة بعد مصر وبلاد ما بين النهرين اللتين اغدقت الطبيعة عليهما نعمها . فها هي تنطلق فجأة في السنة الالفين تقريباً فتشيد القصور في كنوسوس وفايستوس وماليا بنوع خاص . ولكن هذه القصور تهدمت حوالي السنة ١٧٠٠ ، بفعل كارثة شاملة قد تكون زلزالاً ارضياً او غارة صاعقة قام بها الاعداء . ثم اعيد تشييدها وابتدأ حينذاك عهد ازدهار كريت عامة وكنوسوس بنوع خاص التي كتب البقاء لقصرها وحده في الجزيرة منذ السنة ١٥٠٠ تقريباً .

ذاعت حينذاك في كافة انحاء المتوسط الشرقي شهرة كريت ، ولا سيما شهرة مينوس ، الملك الاسطوري الذي تكلم عنه الاغريق والذي يغلب انه اسم لاحدى السلالات لانه لا يعقل ان يكون من اكتشافات خيلتهم فقط . وقد بدا اثر هذه الشهرة في جنوبي اليونان وفي البلوبونيز بنوع خاص .

لم تعرف مناطق شبه الجزيرة اليونانية حتى ذاك التاريخ سوى حضارة فقيرة ومتدنية . وقد تعرضت منذ اوائل الالف الثاني تقريباً ، بفضل اتصالها بالمناطق البلقائية الاخرى ، لغزوات دورية متكررة قام بها الهنود الاوروبيون الذين كثيراً ما نجحوا في الاقامة في البلاد . ومنذ القرن السادس عشر توصل المستوطنون الجدد الى تسلم السلطة ، على الاقل في منطقة ارغوس ، في الشمال الشرقي من البلوبونيز ، وهؤلاء هم الاخيون الاغريق ، او بالأحرى احدى العنصرات التي ستكون الشعب الاغريقي فيما بعد . وقد تأثروا بنفوذ الكريتيين واخذوا ينقلون الكثير عن حضارتهم ، محتفظين في الوقت نفسه باكثر من ميزة من ميزاتهم الخاصة . بيد انه قد مر عهد حققت فيه كريت سيطرة نافذة عليهم تكاد لا تختلف عن السيطرة السياسية ، لا سيما وان كريت وكنوسوس كانتا حينذاك في اوج ازدهارهما .

غير ان الأخيين بفضل صفاتهم الحربية واستخدامهم العربات التي تجرها الخيول والقوى النضيرة التي تجيش فيهم ، وبفعل سحر الثروة التي ينعم بها مربوهم ، قد انتهوا الى مهاجمة هؤلاء المربين . فذلك قصر كنوسوس دكاً حوالي السنة ١٤٠٠ ، ولم

العهد الميسيني

يكتب له ان ينهض بعد ذلك . ويمكننا ان نحدد بهذا العهد اقامة شعب جديد ، كريتي حسب رواية الكتاب المقدس ، في الشاطئ الجنوبي من بلاد كنعان ؛ ويرجع ان هؤلاء الفلسطينيين الذين حملت فلسطين اسمهم من بعدهم ، مهاجرون هاربون من بلاد عمها الدمار . اما الارغوليد، على نقيض ذلك ، فقد اخذت في الوقت نفسه تتقدم وتزدهر. فكيف لا نجتمع بين هذين الواقعين، الهبوط في الجزيرة والتقدم في شبه الجزيرة ، بافتراض حصول حملة منصورة واستلاب منظم ؟

ويدعم هذا الاعتقاد ان في الحضارة التي نمت حينذاك ، لا سيما في ميسين - التي اعطتها اسمها التقليدي - وفي تيرنثوس ، اثرأ كبيراً للحضارة الكريتية . وليس من ريب في ان الأخيين ، في غزوم الجزيرة والقضاء على الحياة النشطة فيها ، نقلوا منها الكنوز والفنانين والعمال بغية تحسين حياتهم المادية الخاصة ؛ ولكن وجود هذه الأشياء وهؤلاء الاشخاص عندهم ما كان ليبقى دون نتيجة في الحقل الأدبي ، لا سيما على الصعيد الديني .

وقد استثمروا ما ورثوه من كريت على الصعيد الاقتصادي ايضاً . فسيطروا على البحر ومارسوا التجارة مندفعين فيها شطر مناطق جديدة كالليونان وغربي المتوسط مثلاً . وكانوا اكثر خشونة من الكريتين فحاربوا ونظموا جماعات من المستعمرين ووجهوها هنا وهناك ، الى قبرص وربما الى شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية حيث اسست دولاً جديدة . وقد نهض الأخيون جميعهم بعمل مشترك ضد مدينة طروادة عند مدخل المضائق ، وهو ذاك الحصار الطويل الذي خلدت ذكره الملاحم الهوميروسية . أما تاريخ هذا الحدث فلا يزال موضوع خلاف وجدل ؛ فهل هو وقع في أوائل القرن الرابع عشر ، أم في أواسط القرن الثالث عشر ، أم في أواخره ؟ ولا اتفاق كذلك حول الاسباب التي أوجبت النهوض بهذه الحملة . ولكن ليس من شك في قيام الحملة وانتصار الأخيين .

غير ان هذا الانتصار لم يحل دون تسرب الوهن الى الحضارة الميسينية منذ السنة ١٢٠٠ . لم تصب هذه الحضارة بانهار مفاجيء سريع ، بل اعترأها هبوط تدريجي سببته موجات يونانية جديدة آتية من الشمال هي موجات الدورين . وقد توفر هؤلاء الحديد الكافي لان يصنعوا منه جميع أسلحتهم فتغلبوا على أسلافهم المتسلحين بالبرونز الذين بسطوا سيطرتهم على العالم الايجي طيلة قرنين كاملين .

وهكذا نرانا امام حضارتين متميزتين بالرغم من صلة القربى بينهما . أجل وحدة وازدواجية
انها تجاورتا في المكان مع ان المسافة الفاصلة بين مركزيهما تتجاوز ثلاثمائة كيلومتر . وتجاورتا في الزمان ، الى حد ما ، ايضاً ، لا بل ان تحديد تاريخ زمنهما التقريبي يلخص علائقهما الواحدة بالآخرى . فقد دامت الاولى من السنة ٢٠٠٠ حتى السنة ١٤٠٠ ودامت الثانية من السنة ١٦٠٠ حتى السنة ١١٠٠ قبل المسيح . نشأت الاولى ببطء في جزيرة متوسطة ، فأثرت في ولادة الثانية أولاً ، ثم امتدت في وريثتها بعد زوالها ؛ ووفقت الثانية بين ما قبلته

أو استلبته وبين ما جاء به أفرادها من السهول الشمالية . الأولى عملية ومستقلة والثانية نتاج المهاجرين الذين بنوها بمستوردات خارجية . الأولى تفرغت للتجارة بنوع خاص ، والثانية نزعت الى الحرب واتصفت بانها بحرية وبرية على السواء . الأولى أنيقة ورقيقة ، والثانية أكثر قسوة وسعيًا وراء الذهب .

فجليّ اذن ان هاتين الحضارتين تتكاملان جزئياً وتتقابلان أيضاً . وليس من سبيل لدرسهما مجتمعتين .

بيد انه يجدر بنا ، قبل الشروع بهذا الاستعراض المزدوج ، ان نلفت حرد المستندات النظر الى واقع يفسر نواقص هذا الاستعراض والتحفظات التي ستتخلله أحياناً كثيرة : ان حل رموز الكتابات التي استعملها الايجيون لم يتوصل بعد الى النتائج المتوخاة . وليست المستندات ما يعوزنا ؛ فهناك ، على الأخص ، أكثر من ١٥٠٠ سبورة غرينية مجففة بالحرارة اكتشفت في اطلال كنوسوس وحدها ، وعدة مئات أخرى عثر عليها في بيلوس من اعمال البلوونيز . ويستدل من ذلك ان القصور كان لها مكاتبها ومحفوظاتها وربما مكاتبها أيضاً ، ثم ان كريت قد زودتنا ، بالإضافة الى ذلك ، بالكثير من العاديات ، لا سيما الاختام والخزفيات التي تحمل رموزاً كتابية . فالكتابة اذن لم تكن وقفا على الادارات ؛ واذا اعتمدنا على وجه استعمال بعض هذه العاديات ، جاز لنا الاستنتاج ان الافراد ، حتى في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، كانوا يفهمون هذه الرموز . وقد اعتمدت في الكتابة ثلاث طرائق على الأقل احداها هيروغليفية والاخران كتابيتان ، وقد بذلت جهود كثيرة غير مثمرة لكشف سرّها . فقبل : «تنتظر كريت شموليونها» غير ان شموليون قدوفق الى حجر الرشيد الذي نقش عليه كتابة في لغتين مختلفتين ، وهذا ما لا يتوفر هنا . ولكن العلماء البريطانيين ، في اواخر السنة ١٩٥٣ ، قد كشفوا عن النتائج التي انتهوا اليها في تطبيق اساليب جديدة على احدى الكتابات . وما لبثت هذه النتائج ان فرضت نفسها على المعنيين بهذه الكتابة . ويمكن القول اليوم ان الأخيين تكلّموا وكتبوا ضرباً من ضروب اللغات اليونانية التي اصبحت بعض مفرداتها ، منذ اليوم ، سهلة القراءة والفهم . وليس من ضرورة للتنويه بالآمال المعلقة على هذا الحل . فاذا ما استجلي واكمل وتناول المستندات الاخرى ، قد تنقلب النظريات المأخوذ بها رأساً على عقب ، حتى تلك التي اوجزناها في الصفحات السابقة . ولكن الحل لا يزال في بدايته .

لذلك يجدر بنا ، في الوقت الحاضر ايضاً ، ان نكتفي بالتقاليد التي نقلها الاغريق وشوّهوها احياناً وبما اسفرت عنه اعمال التنقيب من آثار وافرة منذ السنة ١٨٧٥ في البلوونيز ومنذ السنة ١٩٠٠ في كريت .

٢ - الحاضرة الكريتية

الملكية المينوسية ليس لدينا من الحقائق الثابتة حول الملكية المينوسية الا النزر اليسير .

فتعدد القصور في النصف الاول من الالف الثاني يحدو بنا الى الاعتقاد بتعدد الممالك . ومع ذلك فليس من مدينة احيطت بالاسوار، ولم تظهر القصور بمظهر الحصون الا لفترة قصيرة . فلم تكن الجزيرة اذن ساحة حرب بين اطماع متنافسة . ومهما يكن من الامر ، فان كنوسوس قد ضمنت لنفسها الغلبة الاخيرة كما يشهد بذلك الازدهار الذي انتهت اليه والذي يثبت سيطرتها على الجزيرة بكليتها . اما الحياة النشطة التي استمرت في المساكن القروية الغنية فلا يجب ردّها بالضرورة الى الملوك الصغار ، بل الى الحكام الذين تعينهم السلطة المركزية . وان الغنى المادي الذي تتصف به الحضارة الكنوسوسية لدليل ثابت على غنى هذه الملكية . وكان للقصر مصانعه ومخازنه وجمهور غفير من العمال والخدم . واذا ما استندنا الى اهمية المكاتب والمحفوظات الكتابية ، جاز لنا التأكيد بان الملكية قد سعت لتحقيق نوع من المركزية . بيد انه يتعذر علينا الادلاء بشيء عن الاساليب الادارية المتبعة .

لا تجوز المغالاة هنا في الكلام عن ملكية قوية او عن امبراطورية مينوسية . اما القوة البحرية فلا يرقى اليها شك ، اذ بدونها يصبح تحصين المرافئ والمدن والقصور امراً لا مفر منه . ويعتبر مينوس في التقليد اليوناني مؤسس اول ملكية بحرية ايجية . ويثبت اتساع حركة المقايضات ، مع جميع بلدان المتوسط الشرقي ، ان هذا البحر ، كما يؤكد توسيديد ، قد طهر من القراصنة . ويضيف المؤرخ نفسه ان مينوس قد اقام «ابناء» رؤساء للمستعمرات في معظم جزر السيكلاد ، مما يحمل على الاعتقاد بسيطرة سياسية على الجزر . غير ان علم الآثار لم يكشف عن اي نفوذ هام خلال عهد الازدهار في كنوسوس . ولولا اسطورة المينوطور ، وهو مسخ مينوس الذي توجب على الاثينيين ان يقدموا له كل سنة ضحية بشرية ، لكننا اكتفينا بالقول ان اثر الحضارة الكريتية في اليونان قد اقتصر على الاشعاع فقط . فهناك اذن صلة انتساب وخضوع لم ينج منها ، بالتأكيد ، سوى الارغوليد وقبرص والساحل الآسيوي . اما تلك المواقع القليلة المنتشرة التي احتفظت باسم مينوس فلا تكفي لان نرسي عليها القول بامبراطورية كبيرة حقيقية .

وعلى نقيض ذلك كانت القوة العسكرية اقل شأنًا . اجل ، ان على «اناء الرئيس» رسماً لضابط صابرٍ على حمل الاسلحة ، وان اخربة كنوسوس حوت مخازن للأسلحة . ولكن هذه الأدلة تبقى محدودة الأهمية . فالملكية الكريتية اعتمدت على بحريتها ، ولم تقو بحريتها على ان ترد عنها هجمات الغزاة المستلبين ولا الكارثة الكبرى النهائية .

كان للملكية صفة دينية . وليست الرسوم التي تزين قاعة العرش في كنوسوس والغرف الملاصقة لها مجرد رسوم جمالية فحسب . الملك يقبض على صولجان وتحيط به بعض الرموز : زهرة الزنبق وخصوصاً الفأس المزدوجة التي كثيراً ما رسمت على الأعمدة والجدران ايضاً . وكانت هذه الفأس ، عند بعض شعوب آسيا الغربية ، شعاراً دينياً وخاصة من خاصيات بعض الآلهة كـ « تيشوب » الحوري و « حدد » الدوليكاني . وقد نقل الأغريق اسمها الآسيوي « لابريس »؛

وليس ما أطلقوا عليه اسم « لايرنت » سوى قصر كنوسوس ، قصر الملكية التي ترمز إليها الفأس المزدوجة . فليس من ريب إذن حول العلاقة بين هذه الملكية والديانة . ولكن لا شيء لدينا يساعد على توضيح هذه العلاقة ، حتى تلك القصة التي رواها افلاطون .

لسنا بحاجة الى التقليد اليوناني كي ننسب الى الملك مهام قضائية . فهو قد تدخل ، في كل مكان ، في واقع السلطة الملكية وجوهرها . ولكن هل يجوز لنا ، اذا جعل الاغريق من مينوس قاضياً للبحيم لا تلين له قناة ، ان نستنتج ان سلالة من بعده قد اشتهرت بتقشف خاص ؟

ويستدل من قلة ما نعرفه وكثرة ما نجعله ان الملكية المينوسية ، حتى لو حملت الحضارة الكريتية طابعها واستحال ادراكها بدونها ، أبعد في الوقت الحاضر من ان تجعل درس هذه الحضارة أمراً مغرياً يوجب الاهتمام .

بيد ان الأمر على خلاف ذلك في بعض مظاهر الحياة الاقتصادية على الأقل . النشاط الاقتصادي
ويمكننا القول ان الزراعة كانت مزدهرة ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار نسبة الجودة المحدودة في تربة البلاد الايحية ، واحتلال الجبال للقسم الأكبر من مساحة الجزيرة ، واستطالة فصول الصيف الجافة فيها ، والحاجة للري بسبب فقدان الانهار الكبيرة .

ولم تتمكن الديانة نفسها وتستقر الا بتأثير الحياة الزراعية دون غيرها تقريبا . ولم تتطور بعد ذلك حتى عندما تنوعت اعمال الانسان ومشاغله . وقد اشتهر الكريتيون الى حد بعيد في الاستفادة من كل الموارد الطبيعية ، ويثير حذقهم ، مع حفظ الاقيسة ، الاعجاب نفسه الذي يثيره العمل الزراعي المنظم في الاودية النهرية الكبيرة من الشرق . يغلب على الظن ان انتاج الحبوب ، ابان عهد الازدهار ، لم يكن ليفي بحاجة السكان ، في حال ان انتاج الاشجار المثمرة ، الكرم والزيتون خصوصا ، يفيض عن الحاجة ويصدر بعضه . وقامت ، الى جانب ذلك ، تربية المواشي حتى الابقار منها ، وقد كُتِف بعض الفلاحين حياتهم ، بفضل المساكن الفصلية ، وفاقا لحركة ارتياد الكلأ بين السهول والجبال . وعرف الحمار منذ زمن بعيد ، ثم ظهر الحصان قبيل الالف الثاني غير ان استخدامه لم يصبح شاملاً . وكان الصيد ناشطاً جداً في بعض النقاط من الشاطئ ، يستهدف ، بالاضافة الى سدّ حاجة من حاجات التغذية ، الحصول على صدف « الموركس » الثمين الذي يستخرج منه الارجوان . وفي استطاعتنا ان نطيل هذا الشرح الموجز بالكلام عن القفران والازهار والاحراج وغيرها . ولكن هذه الاشياء كلها ، ولو مجموعة ، ابعد من ان تعلّل ازدهار كريت الذي ارتكز دوغما ريب الى قواعد اخرى راسخة .

يؤيد نشاط الصناعة اكتشاف المعامل الملحقة بالقصور ومدينة اصحاب الحرف ، غورنيا ، في اقصى الخليج القائم الى الشمال الشرقي من الجزيرة . وقد اكتشفت واستسيغت في جميع حقول الانتاج تقنيات على قسط كبير من الكمال . ويستدل من دقة الحزفيات ان الكريتيين استعملوا مخرطة سريعة الدوران . وقد توصّلوا ، باكراً جداً ، في حقل التعدين ، الى

اتقان التنزيل والتغشية والالحام . اما الصياغة وصناعة الاسلحة من البرونز والمعادن الثمينة فلم تكن ادنى مستوى من اجود الصناعات في مصر وبلاد ما بين النهرين .

وأفضت الصناعة الى تجارة عارمة لم تعوزها التجهيزات الفنية اللازمة . أجل ليس الانسان من أنشأ المرافىء ، فلم يقتض للملاحة سوى الشطآن الطبيعية : ونحن لا نعلم شيئاً عن المراكب التجارية ، ولكن يكفي ان نحيط علماً بالمراكب الحربية ، اذ ان الاعمال الانشائية قد تقرر لها وحدها في البدء . وقد توفرت في الداخل شبكة من الطرقات المرصوفة بالألواح الحجرية والمعدّة في الاساس للحيوانات قبل العجلات ، تؤدي الى المدن التجارية والقصور . وقد عمل في الجزيرة ، على غرار الشرق ، بنظام معين للميادين والمكايل ؛ فكانت هنالك سبائك من نحاس واسطوانات من معدن ثمين تسهل المقايضات ، وقد سمت احياناً بعلامات خاصة للدلالة على قانونيتها ، ولكن لا شيء ، ويا للأسف ، يخبرنا عن القانون التجاري . فكيف نتصور ان كريت التي ربطتها بعالم ما بين النهرين علائق ثابتة قد اهتمت بالمقايضة على انواعها : المقايضة والشراسة وغيرها ؟ ولا يمكن ادراك تطور هذه التجارة دون جهاز قضائي يراعي الظروف الخاصة للتجارة البحرية .

فكان من الواجب ، وذلك عن طريق البحر فحسب ، تموين الصناعة بالخامات غير المتوفرة في الجزيرة وتصريف انتاجها في الخارج . وقد أمس النقل البحري خير تأمين هذه المهمة المزدوجة ، فلم تعوز الفنانين الكريتيين الحجارة ولا المعادن المختلفة . وقد عثر على بعض مصنوعاتهم في مصر وقبرص وعلى الشاطئ الفينيقي (جبيل وأوغاريت ورأس شمرا) وعلى شواطئ آسيا الصغرى وفي اليونان ، كما عثر على الكثير منها في جزر السيكلاد حيث كانت جزيرة ميلوس خاصة ، على ما يبدو ، فرعاً اقتصادياً تابعاً لكريت .

لقد استهدفنا قبل اي شيء آخر ، من هذه العلائق المتعددة ، تفسير طريق بحر ايجه المعترض
الثروة البادية في الحضارة الكريتية . ولم ينطفئ الاثر الذي تركته بل اتسع مكانه في التقليد اليوناني حتى ان هوميروس سيتكلم عن الجزيرة . « الجميلة والخصيبة والمروية والآهلة بسكان لا حصر لهم وذات المدن التسعين » .

وهناك اكثر من هذا . فمع هذه الحضارة تبرز للمرة الاولى في العالم القديم ، حياة اقتصادية تسيطر عليها التجارة البحرية . وتضفي عليها هذه الميزة جدّة اكيدة بين الحضارات الشرقية التي تمت اليها باكثر من صلة . وكان ذلك بحكم المحتم في جزيرة فرضت الطبيعة فيها على الانسان ظروفًا حياتية تختلف كل الاختلاف عن تلك التي فرضتها عليه في وادي النيل والفرات . وقد اعدّها موقعها لدور قامت به خير قيام ، وهو انها ، تسهلاً للاتصالات والمقايضات المتنوعة ، فتحت طريقاً جديدة تمر في المتوسط الشرقي من الشرق الى الغرب وتلتقي ، عند قبرص ، الطريق الشمالية الجنوبية الموارية للشواطئ الاسيوية والمعروفة والمتبعة منذ امد بعيد ،

كما تشهد على ذلك علائق مصر يجيبيل . قبل ذلك ، كان الاتصال التجاري بين أوروبا وآسيا يتم عن طريق المضائق بنوع خاص . وانما «طروادة الثانية» ، إحدى المدن التسع المشيدة فوق مرتفع هيسارليك ، مدينة لهذا الاتصال بازدهارها حوالى السنة ٢٣٠٠ قبل المسيح تقريبا ، وان كانت مدينة به ايضا لعلائقها ببلدان البحر الاسود . غير ان هذه الطريق ، عندما سيطر الكريتيون على البحر ، لم يسلكها تقريبا سوى جماعات الهنود الاوروبيين المصممين على استيطان آسيا الصغرى . وهكذا فان كريت قد ابدلتها بطريق اقصر جدا لان مراسي سفنها في الشرق اكثر قربا من مواطن الحضارة الكبرى في الشرق الادنى .

لا نعمل الكثير عن الحياة الاجتماعية ، ولذلك فان ما سنديلي به عنها سيكون على المجتمع كثير من الاجتزاء والنقصان .

انه لمن الامة بكان ان نستطيع سبيلا الى تعقب خروج الانسان من الجماعة الكبيرة وتوزع المجتمع الى اسر صغيرة . ويعتقد البعض بان في علم الآثار دليلا على ذلك . فقد عثر بالفعل على بعض المساكن القديمة الموضوعة المقسمة غرفا حتى العشرين تقريبا ، في حال ان البيوت العادية ، بعد ذلك ، كلها بيوت لاسرة واحدة . ولكن الغموض لا يزال يكتنف حقيقة تعليل هذه المساكن الجماعية . ومن خطل الرأي ومزيد الجرأة ان نتكلم عن الاحزاب في جزيرة كريت .

وهناك ، في موضوع الاسرة ، واقع يبرز يحلله من المستندات ، وهو ان المرأة في المجتمع الكريتي تتمتع بمركز وبحرية لم تعرفهما في ذلك الزمن نفسه ، في أي مكان آخر ، وسيقتضي لها وقت طويل جدا حتى تبلغها . فسواد الآلهة من الالاث وللكهانات الدور الأول في الاحتفالات . وغالبا ما تظهر الرسوم نساء خارج بيوتهن ، في الساحة العامة والمسرح وحلبة الملعب . ولكن علينا الاكتفاء بالتأكد من حقيقة هذه الاعراف الخاصة ، دون محاولة تعليلها . نحن نجعل كل شيء عن النظام الزراعي وعن تنظيم الطبقات الاجتماعية الدنيا التي نهضت بالانتاج الزراعي والصناعي واعباء النقل التجاري . ويعطينا تراكم البيوت - المصانع الصغيرة التي تتدرج المنحدر الى الورا من غورنيا ، الدليل على واقع غني عن البيان ، وهو وجود الفقراء في كريت كما في كل مكان .

لن نتوقف هنا سوى امام المساكن الكبيرة والقصور . فهي قد زخرت بحياة متألفة بهجة صافية ، أي بحياة بلاطية . وقد وفّر الذهب والفضة والبرونز واللائي والحجارة النادرة الضرورية لأسلحة الابهة والحلى والجواهر والخواتم والفصوص التي جمعت الذوق اللطيف الى كمال الصنع . وقد شاع زي نسائي مستحب يستلزم «التنانير» الناقوسية ذات الاطار ، والصدر التي تكشف العنق والكتفين ، والأكام الفضفاضة . وقد استعمل الرجال حلاهم أيضا ورغبوا في الأقمشة والجلود الملونة ، ولكن تبرجهم كان أقل تعقيدا . وكان للشرفات والازهار وسعة العيش مركز مفضل . وكانت هنالك اقنية محكمة التصميم لتوزيع الماء على المساكن التي لم تخل

حتى من البواليغ ؛ وسينقضي بعد ذلك وقت طويل قبل ان يفكر الانسان ، من جديد ، بالاهتمام للتدابير الصحية المعتمدة الى حد بعيد ، في كريت المينوسية ، اكثر من ألف وخمسمائة سنة قبل المسيح .
ولكن كل هذا ، بالرغم من فتنة هذه الأدلة ، لا يتعدى المظهر المادي لحياة اجتماعية تنمى لو نستطيع تحليل اجزاء نظامها المختلفة .

الديانة
يصح القول نفسه تقريباً عن الديانة التي لا سبيل للدنو منها إلا من خلال الفن .

ان اسهام كريت في النظريات الدينية التي اخذت بها الحضارات الشرقية المعاصرة لها أبعد من ان يكون شاملاً . بيد انه يمكننا ان نحاول ، انطلاقاً منه ، تحليل وفرة الكائنات الوهمية الشيطانية ذات الوجه الاصفر : رجال ونساء برؤوس حيوانات ، ابو الهول ، العنقاء المغربية ، الجنّ المجنّح . وما المينوطور في علم الاساطير اليونانية ، على الأرجح ، سوى أثر من آثار هذه الكائنات المسيخة . ويبدو بصدد الآلهة انفسهم ، ان الكريتين أخذوا بمبدأ التشبيه . ويفلب ان الاسلحة (الترس والفأس المزدوجة) والطيور والحية والثور لم تكن سوى خاصيات أو رموزاً . بيد ان الامعان في تمثيل الشجرة وسط الاحتفالات الطقسية او على المذبح احياناً يحملنا على الاعتقاد بانها كانت موضوع عبادة مباشرة هي من رواسب الوثنية البدائية . وعلى كل حال ، فليس هناك ، على نقيض الشرق وعلى ما نعلم ، أي جرم مؤله . كما ليس من إله للهواء أو إله للبحر ، وهذا ما يثير العجب اذا ما اعتبرنا دور البحر في الحياة الكريتية . ويفلب ان الديانة انما تستهدف تمجيد خصب الارض المغذية . فوفرة الرسوم النسائية ، والميل الملموس الى ابراز الكشحيين وتعزية الشديين بوضع اليدين متشابكتين عليها احياناً ، وإشراك هذه الرسوم برسم الشجرة والحية التي هي حيوان ما تحت الارض الاول ، كل ذلك يحذو بنا الى الاعتقاد بوجود عبادة اولى تتجه الى ما يمكن ان نسميه « بالأم الكبيرة » ، اعني بها إلهة الارض والاخصاب . والإله الذكر المفروض وجوده الى جانبها لا يتمتع إلا بمركز ثانوي اكيد . ولكن هل يجوز لنا ان نرد كل ما لدينا بعض آثاره الى هذه الازدواجية؟ يجب علينا قبل الاقدام على هذه المحاولة ، ان نتمكن من قراءة الاسماء الالهية .

ان المعبد الذي لا مناص عنه للعبادة في غير مكان لا أثر له هنا . ولسنا نجد سوى بعض المساجد الصغيرة قائمة في المساكن الكبيرة أو منشورة في البلاد، أو سوى المذابح وحدها احياناً . وهكذا فان العلاقة بالشرق لم تقض الى اعتماد الابنية المخصصة لسكن الاله . اما الاعياد ، على نقيض ذلك ، فأكثر تشابهاً بالعادات الشرقية . فهي تظهر ، هنا ايضاً ، المراحل الكبرى للحياة الزراعية ، ولا سيما الحصاد وجني الاثمار ، وتتخللها التطوافات والرقصات المقدسة السعرة احياناً على انغام الموسيقى . بيد انه لا يمكننا ان نستنتج من ذلك ان هنالك نقلاً أو اقتباساً . ويتخلل

الاحتفالات الدينيّة مشهد غريب ، غير المسرحيات التي درجت عند المصريين ايضاً ؛ بل الالعب العامة مع ما يرافقها من معارك الملاكمة والمصارعة وسباق الثيران بنوع خاص ، ولم يعرّض ذلك للموت على ما نعلم ، بل كان فرصة يظهر فيها اللاعبون خفتهم ومهارتهم . ولم تتردد بعض النساء انفسهن في الاشتراك في هذه الالعب .

احرزت هذه الالعب نجاحاً اكيداً كبيراً . ولكن هل كان لها ، عملياً على الأقل ، معنى غير ديني ؟ لا نستطيع ثبت ذلك او نفيه . ويبدو على كل حال ان المثل الأعلى الطبيعي للكريتي هو نفسه المثل الأعلى للرياضي . واذا ما استندنا الى الرسوم المصورة فليس من بدني واحد في البلاد التي اكتسب الكل فيها قدماً نحيفاً جداً . وما من شك ايضاً في ان هواية الرياضة هذه ، حتى ولو ارتبطت بالديانة ، تمّ عن الأخذ بمفهوم جديد للانسان المدعو لانماء صفاته الطبيعية في سبيل هدف غير الحرب وتحضيراً لمجهود فردي بالضرورة .

ولا تترامى الآراء حول الموت إلا جزئياً ايضاً . فلا يقتصر على دفن الجثة في قبر على هذا المقدار من الغنى أو ذاك . بل توضع على مقربة منها أدواتها المألوفة أي كل ما قد تحتاج اليه في المداومة على حياة لا يضع الموت لها حداً . وتخصص للجثة بعد ذلك التقادم الغذائية وغيرها ، تلك نفسها التي يستحسنها الاله . وهكذا فان الحياة الثانية قد يرافقها شيء على الأقل مما يدنيها من العالم الالهي . ان ناووس الثالث المقدس الشهير المستغشى بالرسوم المصورة يرينا الميت منتصاً أمام قبره ناظراً الى حاملي القرايين وهم يتقدمون نحوه . ويرينا ايضاً عربية قطر بها الاحصنة من جهة والعنقاوات من جهة اخرى . ولكن هل تنقل هذه العربية الميت ؟ الحكمة أولى في هذا الموضوع ايضاً .

ان الفن ، مع التجاره البحرية ، هو النطاق الذي اثبتت فيه الحضاره الكريتية
الفن صفاتها المميّزة و احررت اكمل نجاحاتها التي ليست بحاجة الى توضيح بقراءة النصوص لان صفة الجمال فيها تسحر كل من يشاهدها . هنالك فنون معاصرة تفرض الاحترام بسعة المفاهيم التي تعبر عنها وقوة الوسائل التي تستخدمها ، في حال ان الفن الكريتي لم يهض باي شيء عظيم ، بل كأنه يتنكر لكل ماهو عظيم متحاشياً تحقيق المواضيع الكبيرة ، ولكنه يستعيب عن ذلك باحساس حاد حيال الحياة وملاحظة الواقع ، وبقابلية لاكتشاف الساحية التزيينية التي يمكن استخلاصها من كافة الاشياء ، وبذوق سليم مكتمل حيال الالوان والاشكال ، وبحيوية عجيبة في الاكتشاف وبهارة فنية مدوّخة . ان الفنانين الذين انبتوا من هذا الشعب ولم يتميزوا نوعاً ما عن جمهور الفنانين الآخرين ، لم يروا ما هو عظيم بل رأوا ما هو جميل .

فلا معابد إذن ، ولا مدافن كبيرة ولا مساكن رائعة ايضاً . واكثر القصور اهمية ، بما فيها قصر كنوسوس نفسه ، لم تشيد وفاقاً لتصميم مدروس . لا بل انها تولف عوالم قارب بناؤها المتعاقب اقسامها المختلفة التي لا يتسرب اليها حتى النور الخافت من الفناءات الداخلية او من

أروقة طلبة السماء . ويتصل الواحد بالآخر ، كيفما اتفق الاتصال ، بشبكة مستقلة من الممرات والأروقة ذات الأعمدة - وهذا هو « اللابيرنت » الذي تتكلم عنه الاسطورة . ولكن هذه العيوب في الفوارق بين مستوى وآخر قد سترتها المهارة في انشاء السطوح . ولم يُعْطَ قط باعطاء هذه المجموعة البنائية الجلييلة بقياساتها - يبلغ ضلع قصر كنوسوس الاخير ١٥٠ متراً ، وكان مؤلفاً من طبقتين أو ثلاث طبقات - أي تناسق يوحى النبيل والجلال . وكان بالإمكان ، للاستعاضة عن الوحدة الداخلية ، ان تشيد « واجهة » رئيسية وينشأ فيها باب فخيم ينتصبان امام القادم الى القصر . غير ان الواجهة والباب لا وجود لهما ، بل هنالك ابواب عدة في الاسوار الخارجية تهشم خط النظر العام .

ولكن حداً أدنى من التنظيم يسهم في التقسيم الداخلي . فهناك هو كبير في الوسط : ٦٠ م × ٢٩ م في كنوسوس . وهو ليس مقفراً ، بل فيه المذابح وما تستلعبه من حفر للضحايا . غير ان « الواجهات » المطلة عليه تكاد تكون رتيبة . وترى حواريه بعض « الاحياء » : حي قاعات الالهة والاسلحة وأحياء المساكن الخاصة والمكاتب وعامة الشعب . وان في تجمعها بعض التلاحم ، ولكن التشويش يظهر داخل كل حي من الاحياء التي تتوسطها فناءات ثانوية صغيرة جداً اشبه أحياناً بالآبار .

على الرغم مما يبدو في هذا التكديس من مغايرة للمنطق ومن ان هذا العالم المشوش يعوزه الجلال ، ومن ان اكبر القاعات - قاعة الأعمدة المزدانة بالفؤوس المزدوجة في كنوسوس - لا تتجاوز ١٢ متراً طولاً و ٨ أمتار عرضاً ، فان في الابتكارات الهندسية الجزئية أحياناً انسجام اناقة يستوقف الناظر بسحره : تصميم بعض السلام وتنظيمها ، إحكام الأعمدة التي تقوم مقام بعض الجدران الجانبية ، الوقع الموفق والمقصود في توزيع الظلال والاضواء .

وهناك بنوع خاص زخرف الجدران ، لا سيما في قصر كنوسوس الاخير الذي ثبت ، بذلك وبقياساته ، تميزه عن القصور الاخرى . ولا وجود للتأثيل في هذا الزخرف ، فالجزيرة كلها لم توفر لنا على هذا الصعيد سوى حطام وضيع . وليس من نقوش نائمة على الحجر ايضاً ، بل هنالك رسوم ملونة على جص ادخل عليه بعض النتوء قبل الرسم . والزخرفة عرف قدم جداً لن يلبث التصوير على الجدران ان يحل محلها ، مع الزمن ، بمشاهدة الحية .

عندما يصور الفنان كائناً بشرياً ، يستأثر الوجه كل اهتمامه فيطبعه بالحياة وقوة التعبير والصفات المميزة التي تجعلنا على ان نرى فيه رسماً لاحد الاشخاص . وهو لا يهتم ، فيما عدا ذلك ، للتفاصيل التي يعالجها بسرعة . « فباريسية » كنوسوس مثلاً ليس لها اذان ، كما اهمل في كل الصور تكوين الجذع والاعضاء . فالفهم هو الحركة حين حدوثها واختلاجها ، ولذلك يتسرب الى المواكب نفسها بعض عدم التناسق والتشويش . وان ما يلفت النظر هو التصميم على الحرية . فالإنسان لا يتقيد بالقدسيات ولا بالأوضاع التقليدية او الاصطلاحية ولا بالحرركات المفروضة ،

ولا يخضع إلا لقانون حياته الشخصية . وإذا كان الأمر على ما هو عليه بالنسبة للرسوم التي يحقها الفنان ، فهل يمكن ان يعترف بقانون آخر بالنسبة له شخصياً ؟

نشط الفنان إذن في تصوير حركات الفرد حين حدوثها وعلى طبيعتها ، ولكنه كان أكثر براعة في تصوير الحيوانات فحقق في هذا المجال روائع لا تنسى : التور الواثب ، والنمر القانص ، والقرود المتقدم بين الأزهار ، والطير عند هبوطه ، والسمكة الطائرة عندما تثني جوانحها كي تغط في المياه المزبدة ، والأخطبوط بمجاسته المتأوجة . ليس ثمة من وضع جامد ، بل حركة توحى بما سبقها من حركات وما سيتبعها منها ، أو عمل مختلف المراحل بفصل رسم حيوانين أو ثلاثة في فترات مختلفة من العمل نفسه ، أو استعادة بالغة للحياة في تغييرها ونشاطها ولينها .

بيد أن هذا السعي وراء تصوير الحركة لا يفقد الصورة شيئاً من قيمتها الزخرفية التي يتوصل الفنان الى تحقيقها دونما اعتبار لأي تناسق . ففي سبيل التواء القرن مثلاً ، نراه يحطم حاشية الاطار ، وهو لم يكتف بمراقبة « العدو الطائر » المزعوم عند بعض رباعيات القوائم الكبيرة - وهذا الخطأ الذي يعود إليه قد استمر حتى « ماراي » قبيل السنة ١٨٧٠ - بل جوف احقاء الحيوان وأعلى منه الردف بغية إبراز رتاقة خط الظهر . ويقدر انه استوحى من العالم البحري الذي يعرفه تمام المعرفة ، بفضل وجوده في جزيرة ضيقة ، أكثر من نصف الحيوانات (أسماك وأصداف وغير ذلك) التي صورها ، وان ما يقارب نصف الباقي هو من ضروب العصافير . ومرد ذلك انه يجد عند هذه وتلك أشكالاً أوفر لذانة وتموحاً تضع امامه المزيد مما يشبع نهمه للتناسق الزخرفي . وهو يستوحى ، من البحر ايضاً ، غالبية المآظر الطبيعية التي يجعل الكائنات الحية تتجول فيها بين التواءات الأمواج وتحطمتها ، الأشسن الرخيصة ، والصخور الناتئة . وتستويه ، في عالم النباتات البرية ، الخدوع والأزهار كمواضيع تزيينية ايضاً . ولكنه لا يستسلم لفتنة الوصف ولا للإكثار على غير نظام . فإن ما انطبع عليه بالقطرة من اتزان وتميز يجنبه ركوب الشطط والزخرفات التافهة . فالطبيعة ، الى جانب الحركة ، تعذي بنفسها إلهاماً أحسن هو رقابته ، حتى في ميعاة الدوار .

وقد برهن عن المزيد من الجرأة في معالجة الألوان التي جعل منها الباهت ، ولحاً الى الخارج دون أن يعبأ بالألوان الثانوية التكميلية او بالألوان الواقعية . فالعصفور والقرود أخضرا اللون مثلاً في « بيت الصور » في كنوسوس ، كما أن خطأ قرمزيًا يحيط ببقع من لون واحد . وما كنا لنصف ذلك بغير البرقشة ، لو لم تكن هذه الألوان مختارة عن قصد وتصميم توصلنا الى الفنتة والسحر في الزخرف .

اعتمدت طريقة تعدد هذه الألوان ، أول ما اعتمدت ، منذ القرنين الثامن عشر والسابع عشر في الأواني الخزفية المنسوبة لـ « كاماريس » . ولكن هذه الطريقة لم تلبث ان أهملت في الخزفيات ودام استخدامها في الصور الجدرانبة ، في حال ان طريقة التصوير وفقاً للأشكال قد

خضعت لتطور واحد في الصور الجدرانة والأواني الفرينية ، وفي حفر الحجارة ونقش الاواني المعدنية . بيد ان ما قلناه عن المواضيع المطروقة وأساليب طرقها ينطبق على عهد ازدهار الفن الكريتي بنوع خاص ، في القرن السادس عشر وأوائل القرن الخامس عشر . وبعد ذلك تهذب هذا الفن وانقاد لنظامية قد تفسرها نجاحات الملكية الكنوسوسية . وفي التعبير التقليدي « نخط القصر » اشارة واضحة الى مغايرة هذا الخط للخط الطبيعي الحر المستعذب الذي سبقه . وقد أفضى التهذيب تدريجياً الى تبسيط الأشكال دونما قاعدة او منطق . فأحل القرد محل الفرس ، وفصلت المجسة عن الأخطبوط ففقدت مجرد طريدة متماوجة فحسب . ولكن هذا التصنع المنحط قد برز بعد انهيار كنوسوس على الأخص في الخزفيات الميسينية التي بقيت رائجة ، بالرغم من ذلك ، في اسواق الخزفيات الكريتية في حوض المتوسط الشرقي .

٣ - الحضارة الميسينية

ان الإرث الكريتي الذي انتقل الى الميسينيين من الأهمية بحيث أننا سنقتصر ، تجنباً للاعادة النافلة ، على الفوارق الملموسة بين الحضارتين ، اي الأشياء الجديدة التي أضافها الأخيون . وليس هؤلاء مدينين بهذه الاشياء الجديدة للبلاد التي عاشوا فيها . فبين جنوبي اليونان وكريت فوارق طبيعية طفيفة لعل أهمها ماينتج عن التفاوت في شدة البرد في فصل الشتاء . فلا شيء من شأنه ان يؤثر جدياً في تطور الظروف الحياتية ، ثم ان الحضارات التي ظهرت في اليونان قبل مجيئهم لم تترك لهم شيئاً يذكر ، لا بل لم يكن لديها إلا القليل مما تستطيع ان تتركه ، إذ لا شيء فيها يضاهي الحضارة الكريتية . واذا لم يقبلوا بأن ينقلوا تنظيمهم وحياتهم عن الكريتيين ، فرد ذلك الى انهم قد جاؤوا بنظريات وأخلاق وعادات خاصة بالهنود الاوروبيين ، وبأناس قضوا زمناً طويلاً في بلدان اخرى لا سيما البلدان الشمالية .

تظهر الحدة ، أول ما تظهر ، في التنظيم السياسي والاجتماعي ؛ لأن الآثار الامراء المهرارون المادية التي خلفها كبار هذا العالم أبعد من أن تقارن بآثار كريت .

ان القصور والمدافن الكبرى تفرض الاعتقاد بتعدد الامراء . وكان منهم في ميسين وتيرنثوس ، وهما موقعان غير بعيدين عن بعضهما في الارغوليد . بيد ان شهرتهم لا تفرض الاعتقاد بعدم وجود غيرهم في غير مكان : في الارغوليد نفسها ، في غربي وجنوبي البلوبونيز ، في القسم الأعلى من أثينا ، في بيوسيا . ولم يوجد بين هذه المجموعات السكنية المتشعبة مجموعة بأهمية كنوسوس . أما ثروة ميسين الذهبية الطائلة فقد يكون الفضل فيها لمجرد الاتفاق في اكتشافها ، وهي على كل حال مقتصرة على المصنوعات دون غيرها ، لا يرافقها اي تفوق في الهندسة والزخرف . وفي القصائد الهوميروسية نفسها ، حيث الخيلة تعظم الواقع ، ليس اغا ممنون ، ملك أرغوس اي ميسين ، ملك الملوك إلا بصورة مؤقتة وحملة عسكرية معينة .

ويصبح التباين اكثر وضوحاً حين ننظر الى القصور نفسها . فهي حصون قبل كل شيء آخر ،

شيئت في موقع تسهل طبيعته الدفاع عنها . وغالباً ما يكون هذا الموقع مرتفعاً مشرفاً على السهل المحيط به . يصعد الى هذه الحصون بسلام خارجية تتخللها العراويل والابواب ، وبسلام محفورة في الصخر وبأبواب خفية . وقد أتي بالصخر من كل مكان لتشييد تلك الجدران التي سيصفها الاغريق « بالسيكلوية » أي الضخمة ، لأن حجارها ستبدو لهم هائلة . ففي جزيرة « غلا » في بحيرة كوبايس البيوسية يبلغ محيط السور ثلاثة كيلومترات ، وفي تيرنثوس أنشئت سراديب معقدة في الجدران التي تبلغ سماكتها ستة أمتار .

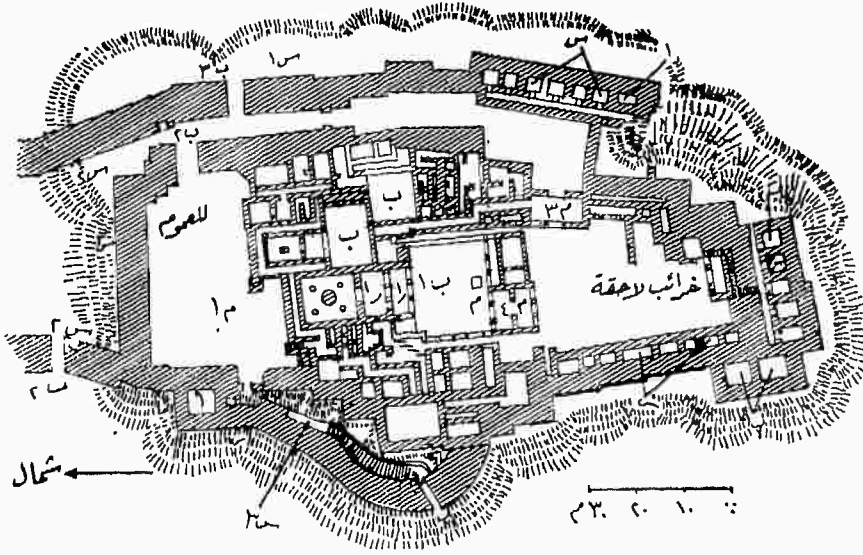
فلا سبيل ، والحالة هذه ، الى الاعتقاد بملكية واحدة حتى ولو افترضنا انها منحت بعض اصحاب الاقطاعات اجزاء من اراضيها . لذلك وجب القول بقيام امارات مستقلة يغلب على ظننا انها تنافست وتصارعت . اما القول بأولوية شرفية معترف بها لأحد الامراء توليه حق القيادة في المشاريع الجماعية ، فلا يستند الا الى الاليادة . ربما استلمت الارغوليد زمام الامور في النهاية ، لكن ميسين وتيرنثوس قد استمر بقاؤهما جنباً الى جنب ، مما يضعا امام معضلة مستعصية الحل .

فمن الثابت ان الامراء يهونون الحرب ويخوضون غمارها في ظروف كثيرة ويدفنون مع اسلحتهم وخوذهم وسيوفهم الثقيلة وخناجرهم وحرابهم . وقد أتاحت لنا الرسوم التي بلغت الينا معرفة دروعهم وتروسهم ايضاً ، التي كانت كبيرة الحجم اولاً ، يبدو الاسان فيها وكأنه في احد الابراج ، ثم اصبحت سهلة الاستعمال بعد ان استديرت واستصغرت . وكلاهما بين حرب وحرب يواظبون ، بغية الابقاء على قوتهم الجسدية ، على ممارسة القنص . وقد أحاطهم الفن الخاص بهم بمشاهد تم عن نشاط عنيف قلما نرى لها مثيلاً في الفن الكريتي . وأعمال النهب هي مصدر ذهبتهم جزئياً . وكل شيء يدل على ان هؤلاء الهنود الاوروبيين الذين بلغوا جنوبي اليونان ، بعد ألف مغامرة ومغامرة نجحها ، وبشق طريقهم بين شعوب طال عهد اقامتها في هذه المناطق ، يحتفظون بميوهم الحربية التي اقترنت ببيل الى الجمال الشرقي الذي استوحوه من الكريتيين . فالسلطة عندهم تتباهى بالقوة الفظة ، وتلجأ اليها عند الحاجة .

لم يتيسر كل ذلك إلا على حساب المجتمع .
الارستقراطية والطبقات
الكادحة
بالرغم من الرغبة الواضحة في التقليد ، أقلته في معالجة المواضيع التي لا تنطبق على معطيات التاريخ ، فإن الحياة في البلاط اقل بهاء منها في كريت . وتذهب النساء ، في ملابسهن وترتيب شعرهن وحلاهن مذهب نساء كنوسوس ، ويظهر احد الرسوم الجدرانبة في ميسين بعض هذه النساء يتبخترن في المسرح عند مقدمة مقصوراتهن . ولكنهن أهملن التمارين الرياضية ، ويرجح ان ذلك قد أثر في قوامهن وحرية سلوكهن الخارجي . ويرجح ايضاً ان الحياة داخل هذه الحصون الضيقة (اقل من ١٥٠ × ٥٠ م في تيرنثوس) ، أي القصور ، لم تشهد احتفالات على درجة عالية من اللطف والاناقة ، وليس من

شك ايضاً في ان الرجل ، بفضل دوره العسكري ، قد فرض نفسه على الحياة الاجتماعية .
ويمكننا ، بالمقارنة مع مجتمعات الهنود الاوروبيين المحاربين الاخرى ، وبلاستناد الى بعض
الخطوط المستعارة من المجتمعات الهوميروسية ، يمكننا ان نعتقد بوجود جماعات من « الرفاق »
تربطهم بالامير صداقة شخصية او مقاسمات أحياناً .

يمكن القول نفسه عن العلائق بين الطبقات الحاكمة والطبقات الكادحة . فالقصور المنتصبة



الشكل ١٩ - قصر تيرنثوس

م ، مذبح ؛ ب ، ٣٥ ؛ ب ١ ، هو رئيسي ؛ س ، سرداب معقد ؛ ١ ، آبار ؛ ١ س ،
السور العلوي ؛ س ٢ ، السور السفلي ؛ س ٣ ، سلم ؛ ١ م ، الميعارون الرئيسي ؛ م ٢ ميعارون
النساء ؛ ب ٢ ، ابواب ؛ ٣ ب ، باب خفي ؛ م ٣ ، مدخل كبير ؛ م ٤ ، مدخل صغير ؛ ١ ر ،
٢ ر ، ٣ ر ، اربعة تؤدي الى الميعارون .

على المرتفعات أشبه بملاجئ يراقب الاسياد منها عمل ممالكهم في السهل ، لا سيما واننا لا نعلم
شيئاً عن العلائق بالسكان السابقين الذين لا يعقل ان يكون الاحتلال قد قضى عليهم قضاء تاماً ،
ويستهوينا جداً ان نتصور الباقين على قيد الحياة منهم خاضعين خضوعاً كاملاً للفاتحين . بيد ان
الشيء الواحد الثابت هو أن اسواراً خارجية كانت تحيط بالقصور والمدن على السواء . ولكن
هذه الاسوار محدودة الطول على العموم (٧٥٠ متراً في تيرنثوس ؛ اكثر من ١٢٠٠ متر بقليل في
ميسين) ، مما يحد من مساحة المدينة . فمن الطبيعي إذن ان يتوزع السكان الباقون في الارياف
او ان يقيموا عند لحب المرتفع بحيث يلجأون الى داخل الاسوار طلباً للحماية في ساعات الخطر .
وكل ما سوى ذلك فمجرد نظريات .

ويقوم التناقض هنا ، في ان مثل هذه الدولات ، وهذا المجتمع قد تعاظمت التجارة والثروة في آن واحد الزراعة والصناعة والتجارة على نحو تعاطيا اياها . أجل ، قد جرى ذلك ببطء ، وعلى غرار كريت التي ما لبثت هذه الدولات ان حلت محلها ، بعد قرنين من التدرب تقريباً . بيد ان نشاطها الاقتصادي قد توسع الى حد بعيد بعد انهيار كنوسوس .

فأنشئت الطرقات وربما المرافئ ، ولم يشعر سكان الحصون ، القرية كلها من الساحل ، بانهم غير قادرين على مراقبة الحياة البحرية وحتى على الاشتراك الفعلي فيها . مارسوا القرصنة أولاً ثم سيطروا على البحر فحلت الأسفار التجارية محل الغزوات الاستلابية . وكانت هذه الاسفار بعيدة أحياناً : فاستورد القصدير الغربي بكميات كبيرة بالإضافة الى قصدير القفقاس واستخدم لصنع المزيّن من الشبهان ، كما استورد - ولا نعلم بأية واسطة - ندى البلطيق الذي لم يعرفه الكريتيون والذي قدّر الهنود الاوروبيون حق القدر انمكاسه الشاحب الحفي . وقد جابت المراكب الميسينية البحار القريبة ايضاً : وتوّجّت المصنوعات المميزة المكتشفة ، بما توفره من معلومات ثابتة ، أهمية واتساع انتشار الانتاج المعدني والحزفي . فلما كانوا قد أتوا من الشمال ، حيث المناخ أشدّ قساوة ، فإنهم قد أحضروا معهم المشابك المعدنية (الدبابيس) القيمة بإيثاق ملابس اثقل وزناً . فنقلها عنهم سكان البحر المتوسط . وقد ظهر الكثير من مصنوعاتهم الشبيهة وجواهرهم وحجارتهم المنقوشة ، ولا سيما خزفياتهم ذات الرسوم المبسطة التي تشبه الرسوم الهندسية ، في مواقع كثيرة جداً : في صقليا وإيطاليا الجنوبية والسيكلاد وسواحل آسيا الصغرى وفينيقيا أخيراً حيث غدت لهم « مينة البيضاء » ، مرفأ أوغاريت - رأس شعرا ، مستودعاً عامراً بالنشاط يرجح انه كان بمثابة مستعمرة انطلق القصدير منها الى كل مكان حتى بلغ بعض النقاط في وادي الفرات .

غنيمة حرب وقرصنة ، جزية ، صناعة ، تجارة ، كل ذلك أدّى الى الثروة . ولم يعط أي موقع في العالم اليوناني كمية الذهب التي اعطتها ميسين (١٤ كيلوغراماً قبل اكتشافات ١٩٥٢) . وحفظ الاغريق ذكرى هذا البذخ ؛ فالقصائد الهوميروسية تنعت ميسين « بالغنية بالذهب » ، على انها تقهرت فيما بعد حتى اصبحت قرية صغيرة في ارض ارغوس . ويجب عملياً انتظار العهد الهليني ورواج الكنوز الفارسية حتى تدخل البلاد كمية كبيرة من معدن هو اثن الماعادن .

يبدو ان الديانة لا تختلف كثيراً عن ديانة كريت . ولكنهم يولون عبادة الفن الميسيني الاموات اهتماماً اكبر شأناً ، لا سيما ما يتعلق منها بأموال عائلات الامراء . وقد افضى هذا الفرق الى تنمية هندسة مدفنية على قسط كبير من الجدة .

اعتمدت في البدء « المدافن ذات الآبار » الخاصة بميسين التي تحفر بأعداد كبيرة داخل اطار مستدير من الحجارة المنتصبة ، وقد اكتشفت مجموعة ثانية منها حديثاً .

ثم خلفتها « المدافن ذات الحُجر » حوالي السنة ١٥٠٠ ، واخيراً المدافن ذات القُعب . فكانوا يحفرون في منحدر المرتفع سرداباً يؤلف مع المنحدر زاوية مستقيمة ثم يذشئون حفرة مستديرة الشكل يعززون جدرانها بسافات حجرية محكمة الترتيب تضيق تدريجياً حتى تكون سقفاً للحفرة . ثم يردمون كل شيء باستثناء السرداب الذي ينتهي الى باب . ويكفي للدلالة على سعة الاعمال المنجزة ، ان نذكر ان السرداب يبلغ حتى ٢٥ متراً طولاً والقبة حتى ١٥ متراً قطراً وارتفاعاً .

في هذه « القفران » ، اي في القبور الجانبية ، توضع الجثث باعداد كبيرة أحياناً . فهل تعني هذه الكثرة ان ضحايا بشرية كانت تقدم اثناء الاحتفال بالجناز ؟ لا شيء يحول دون الاخذ بهذه النظرية في بعض الحالات . ومهما يكن من الامر ، فإن الميت يستمر في الحياة بعد موته . وقد اكتشف في حفر الذبائح تحت السرايب عظام حيوانات وتقادم للميت . وقد عثر في المدافن ذات الآبار على الاقنعة الذهبية التي تظهر خطوط وجه الميت بما فيه اللحية . كما عثر فيها ايضاً على الاسلحة والجواهر والحلى والسكاكين والمحاليق وغيرها من الادوات المختلفة . وفي اواخر القرن التاسع عشر أثارت اكتشافات « شليان » دهشة العالم بأسره . وقد حصلت بعد ذلك اكتشافات أخرى عرف بعضها الشهرة كالكشف عن الاكواب الذهبية في « فافيو » جنوبي البلوبونيز ، ويستحق بعضها الشهرة كالكشف عن دندرا في الارغوليد التي تعود الى خمس وعشرين سنة تقريباً ، كما قد تبلغ الشهرة ايضاً بعض الاكتشافات الحديثة العهد .

لا شيء في هذه المصوغات يظهر تغيرات جوهرية بالنسبة للفن الكريتي . ويمكن القول نفسه عن الفنون الأخرى لا سيما التصوير الذي ازدادت برسومه جدران القصور . فقد ايعرت بعض المواضيع اهتماماً خاصاً بالحرب — أقله في البداية — والقنص مثلاً . ولكن النزعات الجمالية قد بقيت هي نفسها دون تغير . ولا غرابة هنا اذا ما لاحظنا ان هذه النزعات ما زالت تلهم الفنانين الكريتيين الذين راج انتاجهم في اليونان ، او الذين اتوا الى اليونان للعمل فيها مخيّرين او مسيرين فدرّبوا تلامذة بقوا أوفياء لهم .

على نقيض ذلك ، ادخلت على الهندسة المدنية بعض التجديدات التي لا تقل اهمية واثراً عن تلك التي ادخلت على الهندسة المدفنية .

وقد تناولت هذه التجديدات البيت بنوع خاص الذي كُتِفَ وفاقاً لمناخ البلاد . فبينما كان مسطحاً في كريت ، غدا هنا ذا منحدرين تسيل عليه بسرعة مياه امطار اقل ندرة . ثم كانت من الممكن في كريت ، حيث البرد أقل شدة ، ان تنتقل العائلات من مسكن الى آخر . وقضت الضرورة هنا باعتماد المسكن الواحد الثابت لا سيما وان السكان قد هبطوا البلاد من مناطق مناخية أخرى وخضعوا لاعداد أخرى ايضاً . فنشأ عن ذلك عنصر البيت الأساسي : « الميغارون » الذي ظهر في العالم المتوسطي قبل الأخيين . فاننا نجد في « طروادة الثانية » التي ترقى الى الالف

الثالث ، وفي تساليا وبيوسيا في أوائل الألف الثاني.. ولعل منشأ شمالي آسيا الصغرى التي انتقل منها الى اوروبا عن طريق شمالي بحر ايجه ، ولكن الميسينيين هم الذين وضعوا له شكله النهائي الثابت وعمموا استعماله وطريقة بنائه ، فظهر في السيكلااد حوالي السنة ١٥٠٠ ، وفي كريت بعد هذا التاريخ .

قوام الميغارون بناء مستطيل . ويقوم امامه في الخارج ، بعد الأعمدة التي يستند اليها قسم ناتئ من السقف ، رواق بمثابة مدخل يلججه النور والهواء ويفصله جدار ذو باب واحد عن قاعة كبرى هي الميغارون نفسه الذي تتوسطه موقدة ثابتة مستديرة. وليس هنالك من مدخنة لتصريف الدخان ، بل كوة في السقف تستند الى أربعة أعمدة تحيط بالموقدة على الأرض . وبفضل هذه التدفئة يصبح هذا المكان قاعة للآلهة تزخرف جدرانها ويستقبل فيها الضيوف . وسيرد في القصائد الهوميروسية ان الولاثم تقام فيها ، كما ان «أوليس» سيوتر قوسه ضد الطامعين في الملك في ميغارون قصر ايطاليا . ومن وحي الميغارون أيضاً سيشتق المعبد اليوناني .

منذ ذلك الحين اصبح للبيت مركزه ثم انتظمت اقسامه الاخرى كملحقات له . وصدف ذلك في القصور ايضاً التي استازمت ، بسبب أهميتها ، قاعتين ذات موقد أو ثلاثا . ولذلك فهي قد كانت أقل تعقيداً وتشويشاً . ثم خضع البهو الوسطي لقاعدة محددة مع مساقط تقتضيه من اروقته ومداخل تحف بالأبواب . وان خرائب تيرنثوس ، حتى بدون الاسوار ، خرائب مساكن توحى العظمة والنبيل .

ثم ان الذهنية العامة قد تطورت من جهة ثانية . فليس هناك بعد من جموح إلا في حقل التزيين . وقد بذل الملوك الميسينيون مجهوداً بغية تحقيق الجلال الخارجي الذي اهمله الكريتيون فأثبتوا مرة اخرى انهم لا يأنفون من اظهار قوتهم .

وتحت تأثير هذه الذهنية نفسها ، طاب لهم تنفيذ الأعمال العظيمة التي تبدو وكأنها تفوق الامكانيات البشرية . وقد توفى المهندسون في بناء الحصون و « القفران » الى استعمال فدرات حجرية ضخمة جداً . ومهما كان من خرق المحاولة التي استهدفت النقاشة على الحجر والنقاشة الكبيرة — وهذان فنان جهلها الكريتيون ، ولكنها عاجلا في هذا الحقل موضوعاً كريتيائاً أيضاً — ومهما كان من قبح وترهل وثقل الوحشين المنقوشين في « باب اللبوءات » في ميسين ، فان هنالك جدّة تتصل اتصالاً وثيقاً بنزعة الأخيين الى ضرب من العظمة فيه الكثير من التيه والمجاهاة . وللمرة الاولى نرى ، خارج القارة الآسيوية ومصر ، محاولة لتحقيق مثل هذه التصاميم العظيمة توصلاً الى مقصد ديني وزخرفي في آن واحد . أجل فشل الجهود من الناحية الجمالية ولكنه قد نجح من الناحية التقنية ، اذ ان رفع هذه القدرة والاسكفة التي ترتكز عليها فوق جانبي الباب لم يكن من الامور اليسيرة .

بالرغم مما انطوت عليه الحضارة الميسينية من قوّة وإقدام في الحروب ، فقد
إرث الميسينيين وجدت من هم أكثر قوة منها واقداماً ، أعني الدوريين ، وهم أيضاً من

الاعريق ، الذين سبوا انحطاطها أولاً وزوالها فيما بعد . ولكن هل يمكن ان تزول حضارة ولا تترك للآثار ما دية ؟

تسلط الحضارة الميسينية قسماً كبيراً من الارث الكريتي وعينت به . كذلك لم يتح كل شيء منها في اعصار الغزوات الحديدية . فان في اللغة اليونانية بعض المفردات التي ليست بسامية ولا بهندو - اوروبية ولعلها تنتسب الى لغة قد تكون هي نفسها اقدم عهداً من اللغة الكريتية . ومهما يكن من أمرها ، فان الكريتيين والميسينيين قد استخدموها . كذلك احتفظت الديانة اليونانية بتأليه مبدأ الحصب وبممارسة الالعاب الرياضية . وانما هم الأخيون الذين أمنوا استمرار كل ذلك وانتقاله الى من بعدهم .

لم يقصر الأحيون أنفسهم على دور الوسطاء في هذا المجال . أجل لا يمكن ان ننسب اليهم كل ما أصبح يونانياً فيما بعد ، اذ يجب الا تغفل القسط الذي أداه كل من العناصر التي ستكون الشعب اليوناني . ولكن ذكرى حربهم ضد طرواده واسفارهم في المتوسط وثرواتهم وأسلحتهم وحلهم تلهم القصائد الهوميروسية . وقد ذهب البعض الى القول إن هذه القصائد قد تأثرت مباشرة ، من حيث الوزن والمبنى ، بقصائد ميسينية مماثلة ، ولا يخفى ما في ذلك من جرأة ومغالة . اما نحن فلنكتف بملاحظة على نطاق أوسع . كان الكريتيون قد فتحوا طريقاً معترضة في المتوسط الشرقي فكان ذلك خدمة لبحر ايجي وجزره . فحافظ الميسينيون على هذه الطريق ، وكان ذلك هذه المرة خدمة لليونان البرية . ولن يعوز الاعريق طاقة بشرية ومهارة ونشاط كي يستمروا في السيطرة عليها قومياً واستعادة السيادة عليها اقتصادياً . وخلال قرون طويلة سينشطون الى ابقائها مفتوحة وسالكة خدمة لمصالحهم على غرار ما حدث في عهد ملوك ميسين وتيرنشوس .

الفصل الثاني

كنعان وسوريا

ان جوار البحر المتوسط ، وارتفاع سلاسل لبنان يطبعان بطابع خاص المنطقة التي هي امتداد لصحاري البلاد العربية نحو الغرب : كنعان في الجنوب وسوريا في الشمال . وتشد هذه المنطقة الى هذه الصحاري صلة دائمة من حيث انها تتعرض لهجمات الارياح المحرقة المفاجئة ومن حيث انها تستهوي البدو الرحل قبلقتها منهم موجات متعاقبة واقامت في اقسام كبيرة منها أحياناً . فإنما هي لهم الارض السعيدة بفضل امطارها وانهارها وينابيعها : الزراعة ممكنة فيها وجبالها مكسوّة بالإشجار . ثم ان الطرقات المختلفة تؤدي اليها وتمر فيها . وهي المسلك الطبيعي الوحيد بين مصر وجميع بلدان الشرق الأدنى . اجل قد يلفظ البحر فجأة القراصنة ورائدي المغامرات ، ولكن هذا البحر نفسه طريق تؤدي الى البلدان المختلفة . وهناك أخيراً طرق القوافل التي تصلها بأسفل الفرات وبلاد ما بين النهرين . فهي بلاد صغيرة اذنت لحدود طبيعية لها ولا وحدة فيها ولا ادارة مركزية تجمعها ، ومفترق مستطيل قسمته طبيعة الارض الى طرائد طويلة تتجه من الشمال الى الجنوب . وهي الى ذلك مفتوحة أمام كل سيطرة وتأثير ، طمعت فيها كل الامبراطوريات العظيمة والجماعات البشرية التائهة التي رغبت في ان تقتطع فيها لنفسها مكاناً .

بيد ان هذه الجماعات قد برهنت في ضعفها عن انها اكثر تصلباً من جيوش الفاتحين المتعاقبين الذين خلدوا مرورهم بكتابات على درجة كبيرة من التصلف فطبعت تاريخ البلاد بطابعها الخاص ، وباستثناء الفلسطينيين ، كانت هذه الجماعات كلها سامية ، مع انها انتسبت في الحقيقة الى اصول سامية متنوعة دخلت البلاد في عهود مختلفة . وبالرغم من تنوعها هذا ، فانها قد مارست ، أقله في البداية ، الديانة الكنعانية الشديدة التأثير بالطبيعة والزراعة . ولكنها سلكت في تطورها طرقاً متباينة وكونت فسياسة معقدة ، لذلك لن يستوقفنا منها سوى بعض جماعات كان لها اثرها في تطور الحضارة القديمة اللاحق .

١ - الفينيقيون

الفيينيقيون ساميون استقروا في السواحل . ونراهم منذ زمن مبكر في الساحل الجنوبي الذي يتقدمون منه ، فيما بعد ، نحو الشمال . ومنذ اواخر الألف الثالث كأبعد حدّ نراهم في اوغاريت . (رأس شمرا الحالية مع مرفأ مينة البيضا) ، قبالة رأس قبرص الشرقي . ولكنهم لن يتوغلوا الى ابعد منها نحو الشمال . وعلى نقيض ذلك ، فإن الساحل الجنوبي الذي كان ساحلهم قد أفلت من ايديهم وانتقل الى سيطرة العبرانيين والفلسطينيين . ولم يحتفظوا إلا ببقعة ضيقة من الارض جنوبي الكرمل . اما نحو الداخل فيبدو ان توسعهم كان محدوداً ولم يبلغوا جبل لبنان الشرقي الا في نقاط نادرة . بيد انهم توقفوا الى الاحتفاظ بعلائق طيبة بالسوريين .

طوال الألف الثالث ومعظم الألف الثاني، توطدت علائقهم بمصر بنوع أخص،
الحياة السياسية
وكان مركزها بيبيلوس ، وهو الاسم اليوناني لجبله الفينيقية وجبيل الحالية .
ولكن أسياد بلاد ما بين النهرين ، من جهتهم ، بسطوا نفوذهم على اوغاريت . ولم يتح للمدن الفينيقية ان تتمتع بالاستقلال إلا بعد انهيار الامبراطوريتين العظيمتين المصرية والحثية في اواخر القرن الثالث عشر . ولكن هذا الاستقلال كان قصير الامد اذ خضعوا فيما بعد على التوالي للسيطرة الاشورية والبابلية الجديدة والفارسية قبل ان يدخلوا في فلك اليونانيين والرومان من بعدهم . بيد ان هذه الطريدة الساحلية الضيقة لم توفر الارض الكافية لتشييد دولة كبيرة ، بل كانت تحت رحمة الامبراطوريات القوية بسبب ضعف دفاع حدودها البرية .

ولم يكتب لهذه الطريدة ان تتوحد بسبب امتدادها الى اكثر من ثلاثمائة كيلومتر وصعوبة مواصلاتها البرية التي تعترضها وديان ومرتفعات كونتها السيول الجحافة المنحدرة عرضاً من الجبل الى الساحل . لذلك توزع السكان فيها على عدد من المدن احتل كل منها موقعا مؤاتيا للنشاط البحري : جزيرة صغيرة قريبة من الشاطئ أو أرض داخلية في البحر . ولم يجمع بينها اتحاد أو تحالف بل تأكلها التحاسد والتنافس اللذان قاداها الى التحارب احيانا . فتناصبت صور وصيدا بنوع خاص عداء طويل الامد . ولم يتح لمدينة واحدة ، حتى ولو استفادت مما ألحقه الاجنبي بمنافستها ، ان تبسط نفوذاً واسعاً أو دائماً . ولكن ما يلفت النظر هو ان المدن الفينيقية ، على نقيض المدن اليونانية ، لم تنهك قواها في هذه المنازعات . ويبدو ان الاسياد الغرياء الذين بسطوا عليها حمايتهم قد فرضوا عليهم الاخلاص الى السكينة . ولعلها أيضاً قد انشغلت بمصالح اخرى واستهوتها الآفاق الواسعة فلم تنجرب في تيار الخلافات المحلية . والجراح البالغة التي اصيبت بها صور وصيدا ، فسببت هبوطها ، انما هي نتيجة ضربات عدو خارجي لا انقسامات داخلية .

لا نعلم الشيء الكثير عن تنظيم هذه المدن وعن الحياة فيها . ونحن نرجح ان هذا التنظيم وهذه الحياة قد اختلفا من مدينة الى مدينة ومن عهد الى عهد في تاريخها الطويل . وليس من سبيل الى المقارنة بين مفهوم المدينة عند الاغريق والمفهوم نفسه عند الفينيقيين . ولم تحل بعض الفوارق الطفيفة دون سهولة تطور المدن الفينيقية ، بعد فتح الاسكندر ، الى مدن من الطراز

حساباً لقوى أخرى . فكاهن إله المدينة الرئيسي ينعم بنفوذ واسع يحدث أحياناً ان يستخدمه لاغتصاب الملك . وقد ثبت خصوصاً استمرار وجود مجلس من « القدماء » والقضاة ، كما درجت على ذلك صور مثلاً حيث تمثل القضاة بشخصين هما « الصافطان » . ويشترك في هذه الأجهزة ممثلون عن طبقة الاغنياء دونما تمييز بين اصحاب الاملاك واصحاب المراكب ، مما يبرهن ان للعائلات الكبرى مصالحها المشتركة . أما الشعب ، حتى ولو قام مجلس يمثله ، فلا كيان له إلا في ظروف البلبلة والفوضى ، إذ يلجأ إليه الزعماء المتنافسون والأحزاب المتناهضة . ولكن هذه الجمهوريات الملكية الارستوقراطية النزعة تمثل ، بالرغم من ذلك ، الى حاسب الملكيات الشرقية الكبرى ، شكلاً مبتكراً في التنظيم السياسي .

ولعل حياتهم الاقتصادية اكثر ابتكاراً ايضاً .

الحياة الاقتصادية

فالزراعة ليست مهمة . وهنالك على منحدرات الجبال جلول منضدة هي ثمرة عمل شاق طويل . ويسدّ محصول الحبوب القسم الاكبر من حاجات السكان الغذائية ، وتربية المواشي بعض حاجاتهم من المنسوجات ، كما يصدر ما يفيض عن حاجتهم من خمر وزيت .

الصناعات المهنية ناشطة جداً في المدن . وقد قصد الصيادون شواطئ نائية جداً فبلغوا افريقيا سعياً وراء طلب أصداف « الموركس » التي يستخرج منها الارجوان ، مما أتاح للفينيقيين ، زمناً طويلاً ، التفرد تقريباً بصناعة الافمشة الصوفية الملونة . ولم تواجه خزفياتهم منافسة تذكر في الفترة التي تفصل بين هبوط الميسينيين واتساع حركة التصدير في كورنثوس . وقد اكتشفوا أو اكملوا افضل التقنيات لصناعة ادوات الترف والجواهر والزجاجيات والطيوب والمفروشات المنزلة معدناً أو عاجاً . وفي هذا الحقل ، حتى في العهد الروماني ، سترام يتنازعون الأولوية مع الاسكندرية .

ثم ان بحشهم عن المواد الخام وعن الأسواق لبيع سلعهم قد دفع بتجارتهم دفعاً الى الامام . فتعاطوها منذ عهد سحيق قائمين ، بالاضافة الى مقتضيات ضرورياتهم الخاصة ، بدور السماسرة ، فجنوا الارباح من سلع غيرهم ايضاً التي أخذوا على انفسهم امر تصريفها : هكذا سلك الجبيليون مع مصر منذ الألف الثالث ، وهكذا غدت أوغاريت في الألف الثاني مستودعاً حقيقياً للعالم الايجي . أما في البر فلم يتولوا بأنفسهم نقل البضائع بواسطة القوافل ، ولكنهم أقاموا حيث تؤدي طرقات هذه القوافل وحرصوا على ان تقوم أحسن العلائق بينهم وبين السوريين والعبرانيين . وإنما انقطعوا الى التجارة البحرية مستفيدين من موقع مرافئهم ومستثمرين الموارد التي توفرها احراج لبنان لبناء مراكبهم . كان سكان بلاد ما بين النهرين قد اكتشفوا الأصول القانونية والمالية للتجارة البرية ، بينما نحن لانملك قوانين ولا عقوداً فينيقية ، ولكننا أكيدون من انها قد وجدت واعتمدت في التجارة البحرية أصولاً مماثلة . وعلى كل حال فإن الفينيقيين قد برزوا في تقنية الملاحة التي تفوقت على كل تقنية أخرى ما بين القرن الثاني عشر وأواخر

القرن الثامن . وقام بعض ملاحهم من كانوا في خدمة نخاوو ، أحد فراعنة سايبس ، « بجولة » حول افريقيا مروراً بالبحر الأحمر وجبل طارق استغرقت ثلاث سنوات . وسلكوا يجرأة ، لحسابهم الخاص ، طرقاً غير مطروقة مندفعين بعيداً نحو الغرب ومكتشفين مصابٍ الأنهر والمواقع الصالحة للبحر المراكب وللدنو من الشاطئ ومستطلعين ، بتوقعهم الاضطرابي كل مساء ، شواطئ مجهولة ، حرصوا على الاحتفاظ بأسرارها . وقد نشطوا في كل مكان الى إقصاء كل من تسول له نفسه منافستهم ، لاجئين الى القوة حين يرون للقوة سبيلاً ، مستعدين لكل مقايضة ، مقدمين على الاستلاب احياناً ومعرضين انفسهم لسطو المستلبين احياناً اخرى . فقد التجروا ، بالإضافة الى ما التجروا به ، بالارقاء من رجال ونساء واطفال باعهم اسيادهم أو هم خطفهم بالحيلة أو بالقوة . أما ما جاء في ملحمة « أوليس » عن خطف راعي الخنازير اليافع ، « اومبوس » ، بينما كان ذووه يتباحثون مع احدالتجار الفينيقيين في ثمن عقدمن الذهب والندى ، فيبدو ان الخطأ فيه مشترك بين الطرفين اذ ان الامة الصيدونية المسؤولة عن الخطف قد خطفت هي ايضاً على أيدي قراصنة من الاغريق . ولكن الفينيقيين قد عرفوا تمام المعرفة ان الاتفاق الجبى مع اهالي البلدان الغريبة اولى .

وقد توصلوا في اكثر الاحيان الى تحقيق هذا الاتفاق وتمكنوا من تحويل الاستعمار الاسا كل المبتدعة الى اسواق تجارية دائمة ما لبثت ، بفضل ظروف محلية مؤاتية ، ان اصبحت مدناً جديدة احياناً . بيد انهم قد صادفوا مقاومة جديّة من قبل الاغريق الذين لم يسمحوا بأن يمس حرمهم الايجي ، بل هم أنفسهم خرجوا منه لتأسيس اسواق خاصة بهم . فقُسِّمت قبرص فيما بينهم على ان الفينيقيين قد حصلوا منها على الشطر الاكبر : فكان لصيدون فيها ، في القرن الثامن ، « قرط حدث » أو قرطاجة ، أي « مدينة جديدة » . وقد وجب التوافق في صقلييا ايضاً . ولكن الفينيقيين لم يواجها منافسة ما في سردينيا ولا في شبه الجزيرة الايبيرية ولا في افريقيا الشمالية . ولكن ذلك لم يفض الى قيام امبراطورية بمفهومها المعروف ، بل الى سلسلة من المستعمرات الفينيقية ، قد تتقارب حلقاتها او تتباعد ، ينتظر احداها ، قرطاجة الصورية في افريقيا ، مستقبل باهر جدياً . وقد نشرت هذه المستعمرات احياناً الحضارة الفينيقية في اوساط على كثير من التخلف والتأخر .

يتناقض عدد هذه الاسواق وتشتتها تناقضاً كلياً وضيق بلاد مؤسسيها الأم . وهذا دليل على كثافة سكان هذه البلاد حتى ولو سلمنا بالتحاق مهاجرين جدد من هنا وهناك بالنازحين المؤسسين . وهذا ما يعلّل ايضاً امتناع المدن الفينيقية عن التوسع في آسيا وربما عدم نشوب أزمات سياسية واجتماعية خطيرة في تاريخها الداخلي . ولكن هذا النشاط قد أدى الخدمات الجلّى للعالم الشرقي القديم . فقد أسهمت التجارة الفينيقية ، بفضل انتشارها في الغرب المتوسطي وبفضل اسواقها التجارية في شرقي اسبانيا وفي قادش بعد مضيق جبل

طارق ، في تموين الشرق بالمعادن النادرة لا سيما القصدير المستخرج من الجزر الكسيتيرية .
ومكذا فإن هذه المدن الصغيرة القائمة على شاطئ صخري قد وفرت للأمبراطوريات العظمى
بعض المواد اللازمة لتشييد حضاراتها .

ويا لدهشتنا ، استناداً الى ما سبق ، عندما نرى ان الفينيقيين قد مارسوا ، في
الديانة والفن
جوهر معتقداتهم ، ديانة تتسم بطابع زراعي مميز فيما يتعلق بألهتها وخرافاتها
وطقوسها ، مما يثبت انهم تعاطوا الزراعة دون غيرها قبل ان يصبحوا تجاراً وملاحين .

اطلقوا على إلههم الرئيسي اسم العلم « ايل El » الذي ليس سوى اسم نكرة معناه « إله » . وقد
رأوا فيه خالق كل شيء وسيّد الآلهة . ويأتي بعده بعل (السيد) وهو يمثل « حدد » المقتبس
عن سوريا الشمالية اثناء الاستيطان وكان إله الصاعقة والرعد والمطر . اما ابنه « أليان بعل »
فيمثل الآبار وينابيع المياه الجوفية . وكان « داغون » إله القمح و « موت Mot » إله الحصاد ونضج
الثمار . وغدت « عشترت » إلهة الخصب وهي لا تختلف عن عشتار بلاد ما بين النهرين كما
يتضح من اسمها . وهناك مجموعة آلهة آخزين كثيرين طرأ بعض التطور على نظرة الناس الى
جوهرهم وتنسيقهم . فاستقر ملقرط (ملك المدينة) في صور ، وجمع ادونيس (سيدي) اليه
« اليان » و « موت » . ولا ذكر لهؤلاء الآلهة في نصوص اوغاريت - رأس شمرا ، ولكننا
نجد ، في الاساطير التي ترويها هذه النصوص ، الخطوط المميزة الدائمة . منذ القرن الخامس عشر
قبل المسيح ، موت واليان يموتان مناوبة ثم يقومان كما سيفعل « ادونيس » في اعياد جبيل التي
وصفها « لوقيانوس » في القرن الثاني للميلاد . وكذلك نرى ان العالم الفينيقي قد مارس طقوساً
لازمته زمنياً طويلاً بموجباتها الاصلية . فقد اثبتت اعمال التنقيب ما جاء على لسان المؤرخين
الاغريق ، اذ ان القرطاجيين قد قدموا في عهد متأخر ضحايا بشرية من الاطفال لأيل الذي عرف
عندهم « ببل هامون » . ولعل اسم هذه الذبيحة (ملقى) هو الذي حدا بالعبرانيين لأن
ينسبوا للفينيقيين إلهاً اسمه مولوخ .

تمكننا من معرفة الفن الفينيقي عن طريق المدافن التي يثبت قدمها وغناها اهمية عبادة
الاموات . ولكنه ليس بالفن المبتكر ، لا بل انه يكشف عن الاثر البعيد الهام الذي اضافته
عليه فنون اجنبية عدة ، وهو حين يؤلف بينها لا يتوقف الى تحقيق صهرها . المدافن في اوغاريت
معقدة ويتقدمها سرداب على الطراز الميسيني . ويمثل ناووس الملك احيرام في جبيل ، تحت
افريز من البردي ، الميت مرتدياً ثياباً مصرية وجالساً على عرش بجانبه تمثالان لابي الهول ، امام
منضدة للتقادم مصرية ايضاً . اما في صيدون ، فان بعض نواويس القرن الرابع على الاقل التي
قد صممت على شكل معابد يونانية صغيرة ، هي دون ريب من صنع النقاشين الاغريق ، كناووس
« الباكيات » مثلاً الذي سبق وعولج موضوعه ، بكثير من الخرق ، على ناووس احيرام ، ولعله
موضوع فينيقي صرف . ولكن أجل وأثن الادوات الموضوعة في المدافن مصدرها اجنبي ،

وهو ، في جيبيل كما في اوغاريت ، مصر والعالم الايجي . وقد زودها هذا الاخير بنوع خاص بعاجيات تلفت الانظار . ففي هذا النطاق ايضا جمع الفينيقيون ثرواتهم من التجارة الخارجية .

بيد ان لهم فضلا خاصا في تحقيق اكتشاف على جانب كبير جداً من الاهمية هو
الأعدية اكتشاف اليجدية . لقد سبق ورأينا ان المصريين ، وربما سكان ما بين النهرين ، قد اعطوا بعض رموزهم قيمة حرف صحيح ، وتمكنوا بالتالي من تحليل الاصوات الاولى . ولكن هذه الرموز قد احتفظت في الوقت نفسه بقيمة اخرى كما ان رموزاً اخرى كثيرة ، لا سيما المقطعية منها ، قد استمر استعمالها في آن واحد بقيمة مختلفة . ويبدو اليوم ان الخطوة الفاصلة قد خطاها الفينيقيون . فالنصوص الدينية في اوغاريت - رأس شمرا التي ترتقي الى القرن الخامس عشر قد كتبت انطلاقة من ثلاثين رمزاً مسبارياً فقط يمثل كل منها حرفاً صحيحاً . وكانت هذه الرموز معقدة جداً وصالحة للكتابة على الغرين فقط . ويرجح ان النجاح الاخير قد احرز بعد ذلك بقليل وكان مكتملاً عندما اودعت جثة احيرام ناووسه في جيبيل : فقد استخدم في الكتابة المحفورة على غطائه اثنان وعشرون رمزاً اصطلاحياً تقابل اثنين وعشرين حرفاً صحيحاً . فتمت عاش احيرام يا ترى ؟ هناك آنية من حجر الشطوط تحمل اسم رعسيس الثاني وضعت على مقربة من الناووس مما يحملنا على الترجيح انها معاصرة للقبر تقريباً . فلا يرتقي هذا القبر والحالة هذه الى ما بعد آخر القرن الثالث عشر . وهل استقت هذه الرموز من اسلوب كتابي غريب ؟ كل ما تحققنا منه هو انها لا ترد الى تبسيط الرموز الهيروغليفية او المسارية . ولكن هذا يعيب بنا الى الاعتقاد بان الفينيقيين قد ابتدعوها بمعزل عن أي تأثير . ويتضح بالتالي ان التقليد اليوناني الذي نسب اليهم اكتشاف اليجدية قد صادف تأييداً ركيناً بالاكشاف الذي طلعت علينا به جيبيل .

ويستدل من مقارنة الرموز ان ايجدية ناووس احيرام كانت مصدر اليجديات المعتمدة في كتابة لغات الشعوب السامية والمجاورة : الأرامية والعبرانية . ثم استوحاها الاغريق بدورهم مضيفين بعض العلامات النافلة او الجديدة الى اشكال حروف ايجديتهم الخاصة ، لا سيما حروف العلة منها . وما الاسماء التي اطلقوها على هذه الحروف سوى اسماء سامية كألغا التي تأتي من أليف مثلاً ، وغيرها ... ثم نقل كل العالم المتوسطي اليجدية عن الاغريق .

فلا خوف اذن من المغالاة في اطراء اهمية هذا الاسهام بحقه
دور الحضارة الفينيقية التاريخي الفينيقيون في الحضارات القديمة . وان لهم عليها افضالاً اخرى أتاح العرض السابق تقديرها وتوقعها : استكمال التقنيات البحرية التي لا نعرفها تماماً على كل حال ؛ استكشاف شواطئ المتوسط الغربي ؛ تنظيم المقايضات فيما بين المناطق والحضارات النائية . واذا اعوزهم النقد الذي لم يظهر في مدنها قبل العهد الفارسي ، فانهم حريصون على ان يكتفي 'ببحارة التجار' ، في تعاملهم والشعوب المتخلفة ، بالمقايضة دون صعوبة . وقد استمرت اهمية

دورهم الاقتصادي، حتى بعد ان دخلوا في فلك الامبراطورية المقدونية والامبراطورية الرومانية من بعدها ، وحتى بعد ان اشتركت البلدان الغربية اشتراكاً مباشراً في الحضارة العامة . وقد حافظت صناعتهم الزخرفية على نشاطها الواسع ، وقد انتشر تحجارهم الذين لم يميز بينهم وبين « السوريين » في كافة انحاء العالم الروماني ، وأسهموا في اشاعة بعض العبادات الشرقية فيه . بيد ان انطلاق هذه الاشاعة يعود الى عهد مبكر جداً اذ قد مهد لها الطريق وجود البحارة الفينيقيين في كل المرافئ . ففي السنة ١٥٠ قبل الميلاد ، احتفل بعيد ادونيس في البيرة بحضور جماهير شعبية عفيرة ، وكانت النساء تتحسرن على موت الاله الذي لن يلبث ان يقوم ، حين اقلع الاسطول العظيم شطر صقليا حاملاً معه آمال اثينا والقيبادس .

٢ - الأراميون

وراء الطريدة الفينيقية الساحلية ، تقوم سوريا التي هي ملتقى طرق وملتقى شعوب أيضاً . فقد استوطنتها شعوب عدة وتناوبت السيطرة عليها تاركة فيها عنصریات مختلفة القوميات انصهرت رويداً رويداً في كل متجانس وتاركة أيضاً أثراً يماثل المعاصرون تنسيقها . ولتقتصر بين هذه الشعوب على الاراميين دون غيرهم ، اذ ان حضارتهم تنطوي ، في بعض مظاهرها ، على اهمية راهنة .

الأراميون أيضاً ساميون جاؤوا من احدى مناطق الصحراء السورية العربية . الحياة السياسية كانوا في البدء بدواً رحلاً منتظمين قبائل ، هاموا على وجههم حتى بلغوا الاصقاع العليا من بلاد ما بين النهرين حيث نجدهم ، على بعض الكثافة ، مستقرين في حرّات أولاً . وقد جاء في سفر التكوين ان يعقوب قد اقام طيلة عشرين سنة عند لابان على بعض المسافة من هذه المدينة . ثم هاجروا ، ابتداء من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، الى سوريا حيث أسسوا مستعمرات حضرية . بيد انهم لم يقدموا يوماً على طرد قدامى السكان كلياً ، ولم يتوصلوا الى غزهم عدداً ، كما انهم لم يؤسسوا دولة واحدة ، بل بمالك متعددة قد تتحارب احياناً . ولعل أهم ممالكهم تلك التي قامت في واحة دمشق الكبرى عند لحف جبل لبنان الشرقي ، وهي مملكة اسرة « بن حداد » (ابن حداد) ومملكة هازائيل (ايل ينظر) . وباستطاعتنا ان نذكر ، الى جانب مملكة حران ، ممالك اخرى كثيرة : في حلب ، وحماة على العاصي ، وزنجري عند لحف امانوس ، وغيرها .. وتعدد التوراة ثلاثة وثلاثين ملكاً حليفاً في القسم الثاني من القرن التاسع . ويمكن القول انهم بلغوا اوج الازدهار في القرنين الحادي عشر والعاشر اذ سدوا الطريق امام الاشوريين نحو الغرب والشمال الغربي . غير ان الملوك الاشوريين منذ اواخر القرن العاشر ، عندوا في تسديدهم الضربات يوم كانت لهم منازعات مع العبرانيين . وفي اواخر القرن الثامن تم القضاء على استقلالهم ، فخضعوا باستمرار بعد ذلك التاريخ الى الدول الاجنبية .

كان لكل مملكة أرامية عاصمتها وملكها وسلالتها ومغتصبوها أيضاً . وقد فرض الاشوريون الجزية والتقاعد على هذه او تلك من الممالك محاولين حمل الملك على القبول بدور صاحب الاخاذة والموظف في آن واحد . ولكن هذا الملك كان يهب عند أول سائحة ، لاستعادة استقلاله . وجلي ان لا جديد غير عادي في كل ذلك . بيد انه يحذر بنا ان نذكر الكتابة التي يجدها فيها أحد ملوك زنجري احسانات سياسته الداخلية ، بعد انتصاراته الخارجية : « كان « المشكب » يطوفون كالكلاب . أما أنا فقد كنت لهذا أباً ، ولذلك أمأ ، ولذلك أخأ . وذلك الذي لم ير في حياته رأس خروف ، جعلته يملك قطعاً من الماشية الصغيرة . وذلك الذي لم ير في حياته رأس ثور ، جعلته يملك قطعاً من الماشية الكبيرة ويملك الفضة والذهب . أما الذي لم ير القميص منذ حداثة سنه ، فقد ألبس الخزفي ايامي . أنا امسكت بأيدي المشكب الذين كيفوا أنفسهم كما يكيف اليتيم نفسه حيال امه . فاذا ما جلس احد اولادي على العرش بعدي وأقدم على اطلاق هذه الكتابة ، فليضن المشكب باحترام البارير وليضن البارير باحترام المشكب ، . وانما المهم في هذا النص ، ذكر المشكب ، وهم بلا ريب عمال زراعيون ، وربما فداديون ، حسن الملك وضعهم تحقيقاً للالفة بينهم وبين البارير ، « القساء » ، أي العتاة أو الاشراف . وقد يكون لهذه الفكرة سابقتها في الحضارات الشرقية الاخرى . ولكن قوة التعبير فيها تبدو حديثاً جديداً . ومن سوء الحظ ان ليس من نص حتى الآن يلقي ضوءاً آخر على الحياة الداخلية في هذه الدول الصغيرة .

أما دورها التجاري فأقل غموضاً . فالموقع الجغرافي لسوريا وشمال بلاد ما بين النهرين ، الذي جعل منها طريقاً طبيعياً للتجارة بين الساحل الفينيقي وآسيا الصغرى من جهة وبين مناطق اسفل الفرات ودجلة من جهة اخرى ، قد سمح لهما ، كوسطاء ، باظهار المزيد من النشاط الواسع . فقاموا برأ في بعض اقطار الشرق الادنى بما قام به الفينيقيون بجزراً . وما لبثت الصناعة والتجارة في سوريا ان طبقت اصولاً تقنية افضل فنالت شهرة كبرى وأسهمت في ثروة دمشق . ولكن القوافل كانت قد تقاطرت على هذه المدينة منذ قبل الفتح المقدوني . ثم ان تنقلات الاراميين قبل اقامتهم الحضرية المستقرة ، واقدام الملوك الاشوريين مراراً على نفهم ، وهجرة تجارهم الطوعية الى الامبراطوريات الواسعة الارحاء التي اغرطوا في عداد رعاياها ، كل هذه الاسباب قد أفضت الى احلال جماعات ، كبيرة أو صغيرة ، من يتعاطون التجارة ، في مدن عديدة نائية جداً في بعض الاحيان . وقد استفادوا من هذا الوجود المتزايد في كل مكان ، حتى في عهد السيطرة اليونانية ، وسيصبحون ، في ايام الامبراطورية الرومانية ، التجار في كل امصار العالم القديم تقريباً .

وكانت اولى نتائج ذلك انتشار لغتهم التي انصهرت لهجاتها المتعددة في الأرامية لغة الشرق لغة أرامية عامة . وهم لم يكتبوها بحروف مسبارية ، بل طبقوا عليها ايجدية مشتقة من الايجدية الفينيقية . فحملت سهولة استعمالها الملوك الاشوريين على استخدام

يوم من الايام ، المناطق الشاسعة التي شملها حينذاك . ولعل مرد تأثيرهم هو في الاصل فقدارت استقلالهم السياسي حين قمع سرجون الثاني الانتفاضات الثورية الاخيرة في حماة ودمشق . وفي التاريخ اكثر من مثل على هذا التناقض الظاهر .

٣ -- العبرانيون

ان هذا الشعب السامي الذي عاش زمنا طويلا حياة البدو الرحل ، المتشردين احيانا ، والذي تعنى واستوطن فلسطين نهائيا ، بعد خروجه من مصر ، في اواسط الالف الثاني قبل المسيح قد عرف مصيرا خارقا غريبا . وهذا المصير ليس خارقا بمجد ذاته ، اقله حتى منازعاته مع الملوك المقدونيين الاخيرين ومع روما ، فان شعوبا شرقية صغيرة اخرى قد اصابتها ما اصابه من تقلبات الدهر الممثلة ، وانما الفارق الكبير الوحيد هو اننا اكثر معرفة باحوال الدهر فيه منها في سواه ، ثم ليس تاريخه كتاريخ ، ما يجب ان يستوقفنا هنا . لكن مصيره الخارق قائم في غرابة تطوره الديني والاخلاقي وفي اتساع وعظمة دوره في تاريخ البشرية الروحي .

أ - التقلبات الزمنية

القضاء يكفي اذن ان نرسم بسرعة الخط البياني المنحني لتنظيمه السياسي ونشاطه التمادي ، اذ ان الاشكال التي تلبسها لم تبق دون نتائج في النفوس .

فرضت الحياة البدوية على العبرانيين نظام القبائل الجماعي . ثم فرض عليهم الصراع ، بغية احتلال ارض الكنعانيين ، والمنازعات مع الفلسطينيين بنوع خاص ، تنظيما آخر جانباً ظهور الروح القومية وسيرها في مدارج التقدم : فالحرب تتطلب رؤساء يستطيعون جمع الحد الاقصى من طاقات العمل والنشاط في مجهود مشترك .

كان الرؤساء الاول « القضاء » ، وهو الاسم الذي اطلق على القضاء المدنيين في المدن الفينيقية . وقد تسربت الاسطورة الى التقليد الذي تكون حولهم . ولكننا نمس فيهم ، دون غناء ، رجالا تلهبهم الاخطار ويتمتعون ، بفضل صفاتهم الشخصية ، بنفوذ رفيع عسكري وسياسي وديني معا . وقد اعتبرهم الناس اقرب الى الالهية من باقي البشر ، مما اركن سلطتهم على اساس وطيد . ولكن هذه السلطة افترقت الى ادارة منظمة واكتفت بالاساليب البدائية . « وقضى صموئيل لاسرائيل كل ايام حياته . وكان يذهب من سنة الى سنة ويدور في بيت إيل والجلجال والمصفاة ويقضي لاسرائيل في جميع هذه المواضع . وكان رجوعه الى الرامة ، لان بيته هناك ، وهناك قضى لاسرائيل » . اما شاوول ، فكان يشاور مع معاونيه « جالسا تحت الاثلة في جبعة فوق المرتفع » ، رحه في يده وجميع عبيده وقوف لديه .

الملكية الاتحادية وما لبث شاوول ان مُنح اللقب الملكي في اواخر القرن الحادي عشر ، على الرغم من المعارضة التي صادفها هذا الحدث . ولكن الملكية لم تصبح اتحادية حقاً الا في ايام منافسه وخلفه داوود الذي حدّد لها اورشليم مركزاً . ثم سلمها لابنه سليمان الذي عرفت في ايامه ، في اواسط القرن العاشر ، ازدهاراً باهراً حقيقياً .

ولكنها لم تتميز باي تفرد خاص في تنظيمها السياسي والاداري ، اذ كانت من المحتم عليها ، حتى في نطاق شعب صغير ، ان تستوحي الممثل الشرقية العظمى . وكان داوود يحسب حساباً للقبائل والمدن التي كانت لها بمثابة عواصم صغيرة . اجل انه جنّد مجلساً من الموظفين مع رئيس كتبة ومسؤول عن اعمال السخرة وقوّاد وحرس ومرتزة ، ولكنه كان يستدعي مندوبي القبائل ايضاً التي يلجأ اليها عند تعبئة الجيش . واحرز النظام المركزي تقدماً كبيراً في عهد سليمان ، وازداد عدد موظفي البلاط الذين يعملون الى جانب الملك في ادارة المملكة . وقسمت البلاد الى اثني عشرة مقاطعة اسند امر ادارة كل منها الى « وكيل » وفرض على كل منها تأمين المواد الغذائية للقصر الملكي طيلة شهر كامل . ونظمت اعمال السخرة وثقلت وطأتها ، مما اثار شكاوى الشعب المريعة الحادة . وان الفارق الاساسي الوحيد الذي ميزها عن الملكيات المحاورة ، لا سيما مصر وبلاد ما بين النهرين اللتين كانتا لسليمان مثله الاعلى ، كان في الحقيقة فارقاً دينياً . فلم يكن الملك يوماً من الايام ابن الاله او نائبه على الارض ، بل اقتصر على ان يكون « مسيحه » . واذا كان ذلك قد اضى عليه صفة مقدسة ، فانه ، مع ذلك ، لم يتصل مباشرة وبصورة عادية بالاله ، كما انه لم يمارس قط ، ولو نظرياً ، سلطات رئيس الكهنة . ولكن المركزية قد رافقها ، على الاقل ، تقدم ملموس نحو المركزية الدينية . فاقام داوود ، من قبل ، تابوت العهد في اورشليم ؛ وحين توفى سليمان الى تشييد الهيكل ، سعى جهده لان يتخلى الشعب عن المعابد العديدة المنشأة في زمن الحياة البدوية .

وقد اعارت الملكية الحياة الاقتصادية اهتماماً كبيراً ، سعياً وراء توفير مواردها . فحرت العبرانيون ارضهم واحرزوا نتائج حسنة ، حتى في الحبوب ، فاستطاعوا ان يصدروا الى الفينيقيين القمح والزيت والعسل والشمع والطيوب . وقد حالف سليمان حيرام ملك صور ، على المتوسط ، كما نشط لاجتذاب تجارة القوافل من شرقي الاردن . وقد انشأ في الجنوب قاعدة عاصيون جابر البحرية في اقصى خليج العقبة رغبة منه في ان يحوّل اليها شطراً من التجارة مع الجزيرة العربية التي احتكرتها مصر حتى ذاك التاريخ . ثم بنى المراكب وقدم له حيرام الملاحين . ولعل اسطورة ملكة سبا احياء لذكرى العلاقات التي ربطت العبرانيين بدولة زخرت بالكثير من المحصولات المرغوبة . وقد جاء في التوراة ان سليمان « جعل النقد في اورشليم عديتاً كالبحارة » .

وقد استخدم ثرواته لا لتقوية جيشه فحسب بل لتجميل عاصمته ايضاً . فأقام على رابية

هسيون الهيكمل و « بيت الملك » الذي اكمله بقصر للملكة التي قيل عنها أنها اميرة مصرية . ولكن التنقيب عن الآثار لم يتوصل الى اظهار هذا او ذاك من هذه الابنية . ولذلك فان كل محاولة لتحقيق تصميمها تكون مجرد اجتهاد . غير ان المعلومات التي توفرها التوراة (الملوك الاول ، الفصلان السادس والسابع) تتيح لنا بسهولة التأكد من واقع تأثير مصر وبلاد ما بين النهرين ، على الرغم من ان الكاتب يشدد باعجاب على المساعدة الفينيقية وعلى الاسراف في البذخ . وقد استعمل ، بسخاء كلتي ، خشب الارز والصندل ، والحجارة المنحوتة ، والذهب ، والفضة والشبهان . وصنع العرش الملكي من العاج المغشى بالذهب : « لم يسبق ان صنع شيء مماثل في اية مملكة » . « ما من ائافضي » في آنية المائدة الملكية : « اذ لا اعتبار لها في ايام سليمان » . وقد قدم حيرام ملك صور كثيراً من هذه المواد ، كما قدم بدون شك عمالا اختصاصيين . ولم يزهرفن عند العبرانيين الا في هذه الفترة القصيرة . ولكن يتعذر تكوين فكرة واضحة عن الاعمال المنجزة حينذاك ولسنا نعرف معرفة ثابتة سوى الامور التالية : غنى المواد ، والسعي المقصود وراء العظمة والبذخ ، وفقدان الابتكار والتفرد .

الازمات والديموقراطية يبدو ان عهد الظلم هذا لم يدم طويلا ، اذ ان اولوية اورشليم قد اثارت الشكاوى ، لاسيا من الضرائب الباهظة والمركزية . فتفجرت الازمة السياسية منذ موت سليمان في السنة ٩٣٥ وادت الى انقسام البلاد الى مملكتين : يهوذا ، وعاصمتها اورشليم ، التي التحق بها سبطان فقط ، واسرائيل ، وعاصمتها السامرة ، التي التحق بها الاسباط العشرة الاخرى .

وجاءت الازمة الاجتماعية اكثر عمقا واشد خطراً . كانت الحياة البدوية قد فرضت نظاما حياتيا ، ان لم يكن ديموقراطيا بالمعنى الصحيح ، فقوامه المساواة بين الشعب ، وذلك بفضل اشتراكية الاموال والاملاك . فازالت الحياة الحضرية رويداً رويداً ثم افضى الاقتصاد التجاري الذي شجعتة الملكية الى التفاوت الاجتماعي ، وذلك بوضع الاغنياء والفقراء جنباً الى جنب . فهاج في النفوس العنين الى الحياة البسيطة . وكان سليمان واورشليم وحدهما في البدء موضوع انتقاد ، اي ان الانتقاد تناول الملكية التوحيدية وانشاءاتها البنائية التي جسّمت ، بلجوها الى المحصولات الاجنبية ، الاقتصاد الجديد وعواقبه الاجتماعية الوخيمة . ثم شمل الانتقاد ملوك اسرائيل ايضا الذين لم يبرهنوا قط عن انهم اكثر عدلا واسمى اخلاقا من ملوك يهوذا .

ولاح الخطر الخارجي اخيرا ليس من سكان الساحل والملوك الاراميين فحسب كما في الماضي بل من الملكيات العظيمة التي استعادت قدرتها على النهوض بالمهام خارج حدودها . فقدت فلسطين فريسة للدسائس الدولية وساحة حرب تصادمت فيها الجيوش الاجنبية . فحالفت المملكتان ، على التوالي ، هذه الدولة او تلك ، وبمشت دون جدوى عن دولة حامية تكون اقل خطراً ، غير انها انتهتا الى الزوال . فقد فتح سرجون الثاني السامرة في السنة ٧٢١ ونفى ٢٧٢٩٠

لشخصا من السكان الى بلاد اشور وقضى على اسرائيل. وفي السنة ٥٨٧ كان نبوخذ نصر اشد قسوة في اورشليم اذ انه دمرها نهائيا واجلى عنها كافة السكان الذين نفاهم الى بابل .

بيد ان كورش الاخميني ، بعد ذلك بخمسين سنة تقريبا ، وضع حدا لهذا النفي واذن للعبرانيين باعادة بناء اورشليم . ولكن لم يكن هنالك بعد اي عضو من الاسر الملكية القديمة . ولم يكن الفرس ، ولا المقدونيون من بعدهم ، ليرضوا بقيام ملكية قومية جديدة . لذلك لم تعرف فلسطين باشراف المرازبة ، سلطة غير سلطة الطبقة الكهنوتية . وكان على رأس هذه الطبقة رئيس كهنة يدير شؤون البلاد ، يعاونه مجلس اعيان من المدنيين والكهنة ما لبث ان اطلق عليه اسم « سندرين Samhédrin » (من اليونانية سندريون مجلس) اي المجلس الاعلى . ودام هذا النظام التيوقراطي الذي جعل من الدولة القديمة كنيسة ، بعد ان اسبغت دائرة في ولاية حتى القرن الثاني قبل المسيح ، اذ انتهت انتفاضة المكابيين على السلوقيين باستعادة الاستقلال وارجاع الملكية .

اولوية الديانة
ان هذه العبادة التي توجز ، على الرغم من اسبابها ، ناريخا كثير التقلبات ،
تتيح لنا منذ الآن بعض الاستنتاجات .

فالعبرانيون لم يدخلوا سياسيا ، شيئا جديدا يستحق الذكر ، على تاريخ الحضارة . فالتيقراطية نفسها ليست نظاما جديدا في حياة الشرق ، حتى ولا النظام القبلي من قبل ، وتكوين الوحدة الوطنية بقيادة شخصيات بارزة ، والازدهار القصير الامل الذي عرفته الملكية القائمة على مبدأ المركزية .

وكذلك فان اسهامهم الفني ، بقدر تخيلنا له على الاقل ، مفقود تماما ، ولم يكن له ، على كل حال ، اي اثر في الخارج .

اما الادب فأكثر حظا من الغنى . فنحن نعرف تاريخ العبرانيين بفضل التوراة في الدرجة الاولى . واذا كان لهذا المؤلف من قيمة تاريخية ، كثيرا ما نتمنى من جهة ثانية لو تكون اكبر ، - ولكن اي شعب اهتم للتاريخ حينذاك ؟ - فان اكثر من صفحة فيه تم عن نفع ادبية رفيعة . فان القوة التي توحىها الصورة والعزم الذي تنبض به الكتابة والحياة التي يجيش بها التعبير ، كل ذلك يجعل من بعض القصائد روائع أدب يغذي نضارته نسخ شعبي ايضا . ومما يلفت النظر ان عددا كبيرا من اجل القصائد القديمة تنسب لداود نفسه : لا سيما نشيد القوس ، في صموئيل الثاني الذي ألّف بعد موت يوناتان وشاول ، و ٧٣ مزمورا من اصل ١٥٠ . ويلفت النظر ايضا ، على ما في ذلك من استبعاد ، ما يلعب الى سليمان من مؤلفات شعرية كثيرة جدا - اكثر من الف - بالاضافة الى « الامثال » و « نشيد الاناشيد » و « الحكمة » التي لا شك في انها احدث عهدا . وان الصلة المقامة بين الادب والملكية تثبت المركز الرفيع الذي خصّ به الادب ، وهو ، من حيث جوهره ، لم يغتصبه اغتصابا . ولكن بعض علماء الآثار المصرية قد

برهنوا ان ادب التوراة هو ، اكثر من مرة ، صدى للادب المصري . فالزمور الرابع والتسعون مثلاً مستوحى ، بصورة ظاهرة ، من النشيد لأتون المنسوب لامنوفيس الرابع والموضوع منسبط القرن الرابع عشر . ثم ان الشعر العبراني لم يترك في الخارج ذاك الاثر الذي لا يزال حياً حتى اليوم ، الا بفضل صلته الوثيقة بالحركة الدينية التي ألبسها زينة رائعة : وماذا كان مدى اشعاعها ، لولاه ، في الزمان والمكان يا ترى ؟ وهكذا فان الحضارة العبرانية ، على هذا الصعيد ايضاً ، مدينة بالكثير من عظمتها الحقيقية الى الديانة التي هي ملازمة لها .

ويجب ان ننتهي الى الاستنتاج نفسه حيال التطور الاجتماعي . فامية هذا التطور ، بحد ذاته ، قائمة في توضيح الانتقال من اقتصاد جماعي وراعي الى اقتصاد فردي وتجاري . ولا يلمس هذا الانتقال ، في غير مكان ، بمثل هذا الوضوح وفي مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن . ولكن اذا ما نظرنا الى الدرس الذي استخلصه منه الشعب العبراني ولقنه غيره من بعده ، فان الامة الحقيقية الكامنة في هذا التغير الخطير تبرز في النتائج الدينية التي افضى اليها .

ب - الديانة وتطور النظريات الاخلاقية

ان الديانة العبرانية تنفرد ، منذ نشأتها ، بميزة خاصة . فليس من النادر ، في العالم ، ان يعترف شعب باولوية اله من الآلهة . ولكن ليس من شعب يأبى ان يعبد آلهة آخرين في الوقت نفسه . والى ذلك ، فان العبرانيين ، بالرغم من مخالطتهم للشعوب الاجنبية ، يسرون قدماء في تحديد عقيدتهم الدينية الخاصة . ومن الجلي البين هنا انهم ينتقلون من عبادة اله واحد الى الايمان بوجوده واخذ ولكن هذا الاله نفسه يتحول ايضاً .

ايه القديم
اثناء مرحلة « الخروج » التي انتقل العبرانيون فيها من مصر الى كنعان ، جعلهم رئيسهم ، موسى ، يعاهدون لها ظهر له في سيناء ولعله بالاحرى ذاك الذي أكرم في واحة قدش جنوبي فلسطين . وقد اطلق هذا الاله على نفسه اسم « يهوه » اي « الكائن » او « المكون » . وقد دعوه ايضاً « ايلوهم » وهي صيغة الجمع لكلمة « ايلوه » التي معناها « اله » ، لانهم جمعوا منه مجموع كافة القوى الالهية .

كان هذا الاله ، من نواح كثيرة ، شبيهاً بآلهة آخرين كثيرين . فكان اله الحياة والنبات والحصب والعاصفة والغيوم ايضاً . وكان حامياً النظام البشري يقتص من الجريمة ويقضي بالعدل ، اوحى الشريعة ولا يزال يمكنه الاستمرار في اجلائها ؛ وهذا ما صنعه شمس مع حورابي . وقد فرض الحثان . نعم ، لم تعمل شعوب آسيا الاخرى بهذه الفريضة ، باستثناء بعض القبائل العربية ، ولكن عمل بها في مصر حيث عاش العبرانيون . وقد استازمت عبادته ، شأن العبادات

الآخري ، المعابد المختلفة والاعبياد والطقوس والذبايح الدموية . وكان يكشف سر المستقبل ، اما بظهوره للبشر ، لا سيما في الاحلام ، واما بواسطة « قرع » خشبية يسترثيها الكهنة . ثم ان هؤلاء الكهنة قد جئندوا في البدء من مختلف الاسباط ثم المحصر انتخبهم ، نظرياً على الاقل ، في سبط لاوي . ولكن كم من الشعوب كان لها طبقتها الكهنوتية ايضاً ؟

ولكن يهوه ، مع كل هذا ، يبقى متميزاً عن كافة الآلهة الآخرين لانه اله العبرانيين ويفرض على اسرائيل ان لا يكون لها اله سواه . وليس في ذلك نكران لوجود آلهة آخرين ، غير ان هؤلاء لا يمكن ان يكونوا الا آلهة شعوب اخرى . وقام بينه وبين العبرانيين « عهد » حصري الزامي لكلا الطرفين . وقد رمز الى هذا العهد « التابوت » ، اي الصندوق الذي اودعت فيه « لوحات الشريعة » ، والذي رافق العبرانيين في حلهم وترحالهم ، حتى اليوم الذي اقام فيه داوود في اورشليم . اما الاعياد التي تمت في البدء بصلة الى الحياة الراحوية والزراعية فقد غدت حفلات تذكارية لاحداث تاريخ العبرانيين وشدت بالتالي وثاق العهد بين العبرانيين وبين يهوه . وهكذا فان الفصح ، وهو عيد كثير الرموز يرتبط في آن واحد بعبادة قرية وبترية الحملات وبيداء حصاد الشعير ، كان يذكّر ، على حدّ قولهم ، بالخروج من مصر . وهكذا ايضاً فان خيم عيد « المظال » الذي يحتفل به في الحريف للدلالة على نهاية الحياة النباتية ولاستئزال المطر الضروري للمواسم المقبلة ، كانت تذكر بظروفهم الحياتية اثناء اجتياز الصحراء . فالتفسيرات النوعية حوّرت اذن معنى الطقوس التي لم تنطو بمجد ذاتها على اي تقرد وابتكار ، واسهمت في ابعاد العبرانيين عن الشعوب الاخرى وابعاد يهوه عن الآلهة الآخرين .

ولكن يهوه من جهته لم يبد وكأنه إله شامل يهتم لشؤون الشعوب الاخرى بل خص العبرانيين وحدهم بحبته وعدله وعصده وقدرته الحامية مبغضاً جميع اعدائهم . وقد تجلّى ، حيال هؤلاء ، تحيظه وعنفه وتعطشه للدم . وجبّد كل مكيدة واوصى بكل اباداة واسترذل كل شفقة . وهو انما كان « اله الجنود » لاقامة شعبه في كنعان ولنصرته على الفلسطينيين .

ذاك كان الاله الذي تطوّر .

اخطار التأثيرات الخارجية

كان بالامكان — ومن الطبيعي — ان يتجه هذا التطور نحو تقارب

من الآلهة الآخرين ، وقد توفرت لذلك ظروف كثيرة . فاقامة العبرانيين في كنعان ، وتشبثهم واستيطانهم في وسط شعوب كان لها آلهتها وعبادتها ، وصفة هذه العبادات الزراعية ، وروابط هؤلاء الآلهة القديمة بالمواقع والينابيع والاشجار والصخور والجبال ، كل ذلك كان مبدعاة لإعداد شبه محتم . وبالفعل فان العبرانيين لم يقفوا احياناً عند حدّ التأثير بمغريات بعمل وعشيرة الكنعانيين ومعابدهما واصنامها وطقوسها ، بل تجاوزوها الى البلدان النائية التي اثر آلهتها في الملكية نفسها ، حتى في ايام مجدها ، كما في عهد سليمان مثلاً . فالعلائق التي ربطتهم بالعرب وبالفينيقيين بغويع اخص لم تقم دون مقابل ، ففرضت عليهم مصالحهم التجارية المسائرة .

والاغضاء عن بعض العبادات . وبعد ذلك ، لم يكن وجود الجيوش الاجنبية المصرية والاشورية والبابلية ، واقدام الفاتحين على انشاء مستعمرات في البلاد ، واقامة المنفيين في بلاد ما بين النهرين ، لتبقى دون نتائج . فكيف سمح اله العبرانيين لنفسه بالتهرب من واجبه في حماية شعبه ونزول كل هذه المصائب به ؟ أفلا تكفي هذه الاحداث كلها للدلالة على تفوق قدرة الآلهة الآخرين الساحقة على قدرته هو ؟ وهكذا فان العهد القديم كان عرضة للنكسات الدائمة .

ولكن قوى اخرى اشدّ قدرة قد نشطت في عملها من جهة مقابلة .
اورشليم نذكر منها اولاً اولوية اورشليم . ويعود الفضل في هذه الاولوية لبادرة الملكية التوحيدية . وليس من شك في انها بدت كملحق طبيعي لكنونة هذه الملكية وبرنامجه السياسي القائم على المركزية . ناهضت الملكية ، بعد ان استقرت في اورشليم ، المعابد المحلية رغبة منها في احتكار نفوذ العبادة لمنفعة عاصمتها اي لمنفعتها الخاصة ، وتوصلاً لمراقبة الكهنة مراقبة اجدى . وكانت الغاية البينة من تشييد الهيكل الفخم تسهيل حصر العبادة في مركز واحد ، لا سيما وان الحصر يؤدي بالضرورة الى زيادة عدد التقدّم ومحصولها .

ولم يفض قيام الملكتين الى النتائج التي توقع حصولها . ففي مملكة اسرائيل الراضعة ، وجد اتباع يهوه انفسهم اكثر ميوعة وانفلاتاً ، فزغوا الى التظاهر فيها باستعدادهم لتقبل التأثيرات الخارجية ، ولا سيما الكنعمانية منها . فبدأ ايمانهم وما يستلزمه من طقوس اقل نقاء وصفاء . ولم يقدر يوماً للسامرة ، على الصعيد الديني ، ان تنافس اورشليم ، اذ ان سياسة المركزية ، في مملكة يهوذا ، قد أمنت لها الفوز في هذا المجال . ثم ان السامرة ، من جهة ثانية ، قد سقطت نهائياً في ايدي الاجنبي ، مائة وخمسة وثلاثين سنة قبل اورشليم ، واخضعت لسيطرة اطول مدى اخذت على نفسها افساد الاخلاق . وحين استطاع احفاد المنفيين القدماء العودة الى البلاد ، كانت القضية القومية في حكم المنتهية .

استأثرت اورشليم اذن بالعبادة الحقيقية . ولم يوجد ، خارجاً عنها ، سوى اماكن للصلاة المشتركة . ولم يشذ عن هذا المبدأ ، خلال التاريخ ، سوى تجاوزات نادرة حصلت كلها في العصور القديمة . وبالرغم من تشتت الشعب فقد توجب الاحتفال بالاعياد الكبرى ، ولا سيما الفصح ، وفاقاً للطقوس ، على رابية صهيون ، مما جرّ الى فريضة حجّ دوريّ سنوي الى الهيكل . وهكذا فان اسم يهوذا ، وهو اسم السبط الذي خرج منه داوود واسم المملكة التي كانت اورشليم عاصمة لها ، قد تخلّد في ما نسب اليه ، وهذا هو منشأ كلمة « يهودي » .

فكان على اورشليم بالضرورة ، والحالة هذه ، ان تسعى جاهدة للابقاء وللتشديد على ميزة الديانة التي كانت هي مركزها والتي لم تتميز عنها عملياً . فكل تقرب ، ولو بعيد ، من عقيدة دينية غريبة ، وكل تبني ، ولو بعيد ايضاً ، لممارسة طقسية غريبة ، يثيران الريبة والشبهة . ثم ان عبادة العديد من الآلهة ، خارج اورشليم ، وهي نتيجة شبه حتمية للايمان بتعدد الآلهة ،

كانت لهذه الديانة بالمِرصاد . ولذلك فان هذا الاستثثار من قبل صهيون لم يجد ما يبرره سوى الإبقاء على العهد وشدة اواصره .

الانبياء . يجب إذن ألا نهمل دور العوامل الزمنية . ولكن العوامل المقابلة ، وقد سبق تعدادها ، تكاد تكفي لابطالها . لذلك تحتم علينا البحث ، في غير مكان ، عن قوى أخرى حاسمة ، هي القوى الروحية التي احاطت العبرانيين ، بوجودها وبعملها ، بهذه الهالة من الامة التاريخية الحقيقية ، لانها حجر الزاوية في تفردهم ، وبالتالي في اشاعتهم المستمر . وقد تجسدت هذه القوى في الانبياء الذين تنسب اليهم التوراة ، عملياً ، كل الفضل في الانتصار على التيارات الدنسة والنجسة ، وليس من شك هنا في انها جمّلت دورهم ايما تجميل . ولكنها ، من جهة ثانية ، لا تقول شيئاً عن التطور . بيد ان التطور يتراءى بالرغم من صمتها . وبالرغم من صمتها ايضاً نرى ان الانبياء هم باعثوه الرئيسيون .

الانبياء عنصر حضارة العبرانيين الجوهرى والمميز . وليس من حضارة ، على ما نعلم ، توفر لها مثل هذا العنصر . فقد قدموا لهم ، على كل حال ، الخير الذي أدّى اختاره الى ابعادهم وفصلهم عن الحضارات التي عاصرتهم والى تأمين عظمتهم ووحدتهم . وطبعوا بطابعهم الخاص حتى الادب نفسه الذي سموا به الى مرتبة الآداب الرفيعة .

لقد كثر عددهم جداً منذ القرن الحادى عشر حتى قبيل العهد الميلادى ، بحيث ان عددهم هذا واستمرارهم جعلنا منهم مؤسسة حقيقية خاصة بالعبرانيين لا يمكن ادراك العبرانيين بدونها . وقد خضعت هذه المؤسسة للتطور شأن كل ما يمت الى الانسان بصلة . ولكن الانبياء ، بالتحديد ، هم « الملهمون » - وهذا هو معنى اسمهم الجماعى نبيم *Nebiim* - او « الراؤون » او الذين يسكن الإله فيهم . لا يعوزهم جهد حتى يسموا اليه : فانما هو فيهم ؛ يستولي عليهم ويملي عليهم كلماته التي يميزونها بتأكيداتهم : « وحي يهوه » و « هكذا تكلم يهوه » . ولا حاجة للقول ، من جهة ثانية ، ان اكثرهم قد تكلموا ، في جوّ شامل من الغفلة ، دون ان يكون لكلامهم اى تأثير . واذا وجد منهم من فرض شخصيته ، فكم وكَم غيره مرّوا ولم يشعر الناس بهم ؟

منذ البداية ، وقبل داوود نفسه ، ظهروا بشعر طويل اشعث ونفروا من المجتمع وكثيراً ما أثاروا الفضائح ، لانهم لا يراعون احداً ، لا الملك ولا الكهنة ولا الشعب . فان يهوه الذي يتكلم بلسانهم يحيز لنفسه الجسارات وحتى المبالغات . ولم يهتموا لكتابة خطبهم قبل او بعد القاها . وهكذا فاننا لا نعرف شيئاً عن قدامى الانبياء ، حتى ولا اسماءهم احياناً كثيرة . واوسعهم شهرة ، مثل ايليا واليشع في القرن التاسع ، اقرب الى ابطال الاساطير .

ولكنه وجد في بعض الامكنة ، حتى في ايامهم ، ما يمكن ان نعرف عنه بمدارس إعداد الانبياء . وقد استمرت هذه المدارس حتى القرن الثامن ، ويغلب انها هي التي باشرت جمع الكلام الذي يجب ألا يطويه النسيان . فالكلف الالهى ما زال ، من حين الى آخر ، يُنجم

منها ، ومن الجماهير المغمورة ايضاً ، رجالا خاضعين ليهوه ، غير مكترئين بكل شيء سواه ، عاجزين عن مقاومة القوة التي تدفعهم وتحملهم فوق طاقتهم . ولكن عنفهم لا يلين ولا يخف . فان عاموس ويوشع واشعيا في القرن الثامن ، وارميا في القرن التالي ، وحزقيال إبتات النفي – ولا ضرورة لاطالة القائمة – يرجّسون الى المحرّمين انفسهم المذمات نفسها والتنبيهات نفسها والنداءات نفسها التي نستطيع اليوم قراءتها في قصائد ملتبهة طويلة او قصيرة .

اما بعد النفي ، فان هذه المؤسسة قد فقدت بعض الالهاب الذي احيها حتى ذاك التاريخ ، فأصبح الانبياء اشدّ ارتباطاً بالكهنوت وبدوا لاهوتين اكثر منهم انبياء .

المثل الاعلى والعمل النافذ في مثل هذه الظروف ، يتضح ان لشخصية كل نبي اهميتها الخاصة التي كان من الجدير بنا ان نتوقف عندها ، لو امكن ذلك . ولكن هناك ، بالرغم من بعض الفوارق الخاصة في التعبير ، نزعات مشتركة بينهم هي التي سنقصر الكلام عليها وعلى اهم النتائج التي حققوها .

ان بعض اهدافهم لم يتحقق قط . ولا يعني ذلك ان الاضطهادات التي تعرضوا لها قد حطمت يوماً وثبتهم او خففت من نتيجتها . ولكن كيف نسقط من الحساب عامل الضعف البشري وتعذر مخالفة تيار الزمن . فان الكثيرين منهم نبضت قلوبهم بالحنين الى الحياة القديمة وما رافقها من مساواة . والاولون منهم حقدوا على اورشليم وعلى الهيكل الوافر الثروة ؛ ولم يتعلقوا بمحبته إلا بعد ذلك بزمان بسبب الفوائد التي جنتها منه وحدة العبرانيين ، وهي شرط قيام العهد بين العبرانيين ويهوه . ومقتوا التجارة والثروة لانها من اسباب افساد المجتمع وتفاوت طبقاته . وبالغوا في تحديد موجبات مثلهم الاعلى فاخفقوا في تحقيقه . ولكن الهزائم لم تقعس همهم فاحرزوا بعض النجاحات .

ولعل اهم نجاحاتهم واكملها ، وهو ذاك الذي سعوا وراءه يجهد لا يعرف الكلل ، ابقاء العبرانيين بعيدين عن اغراء العبادات الاجنبية ، واعادتهم الى إلههم وحده ، عندما يحيدون عنه . فتوجب عليهم ، لبلوغ هذه الغاية ، تحليل الويلات النازلة بالعبرانيين التي من شأنها ان تثير الشك حول قدرة يهوه على كل شيء وعزمه على حماية العهد . وقد توصلوا الى ذلك باتهام العبرانيين ، او بعضهم ، بتقويض العهد عن طريق الخروج على الشريعة . ففدا اشهار الاخطار المرتكبة ، في الحقلين الديني والاخلاقي ، موضوعهم المفضل ، الى جانب القصاص المقاسي او الداني ، وهو دليل الغضب الالهي . فشقوا بذلك الطريق امام تطور عميق تناول في آن واحد ، يهوه وعبادته ، والاخلاق والتشريع ، وجميع النظريات التي شيدت عليها حضارة العبرانيين .

واكثر ما يتجلّى هذا التطور ، بحسب التوراة ، في التدابير المنسوبة ليوشيا ، ملك يهوذا سنة ٦٢١ ، اذ اخرج كافة الآلهة الغريباء ، واقفل كل المعابد ، وحصر العبادة نهائياً في اورشليم دون غيرها . ولكن التوراة تنسب اليه ايضاً نشر سفر « تثنية الاشتراع » ، وهو ليس

بالشريعة « الثانية » بل « نسخة » موجزة عن الشريعة القديمة . وقد وُصف هذا النص بأنه « كتاب الشريعة الذي عثر عليه رئيس الكهنة في بيت يهوه » ، وهو ينطوي على بيان الاوامر والنواهي التي وجهها موسى الى الشعب باسم يهوه . بيد انه ، في الواقع ، يختلف عن الشريعة القديمة ، حتى في معناها . وما من شك في انه يمثل مجموعة قانونية لقرارات صدرت في توارينخ مختلفة ولاقت ما يبررها في نظرة الى الماضي . ويحدد بعض المؤرخين زمن صدور هذه المجموعة بالسنة ٦٢١ ، بينما يحدده غيرهم بمنتصف القرن الخامس . ومهما يكن من الامر ، فإن التطور الذي تكرر منه النتائج يحمل طابع تأثير الانبياء .

وهكذا فقد اصبح يهوه إلهاً ساملاً .

يهوه والمادة

نعم ، لا يزال حزقيال يؤكد انه « مع اسرائيل » وان « الاسرائيليين خرافته » و « انه إلههم » . ولكنه يكتفي بان يحب العبرانيين فوق محبته للشعوب الاخرى ، اي انه لم يعد واحداً معها . لم يعد يتحيز لها ولا يتردد في الاقتصاص منها في ثورة غضبه من كبائرها . وعوضاً من ان يؤمن لها السعادة الزمنية المستعجلة ، فإنه وكل اليها رسالة حددت بعد النفي بما يلي : « انها امتي المختارة التي سكبت عليها روحي حتى تكشف الستار للامم عما هو عدل » . وايضاً : « ستكون نوراً للامم واداة خلاص للجميع ، حتى اقاصي الارض » .

فأي موضوع افضل من موضوع الشعب المختار يمكنه ان يعزي شعباً مستضعفاً ومستعبداً؟ ولكن هذا الموضوع يستلزم يهوه آخر تعالت قدرته رويداً رويداً واتسعت آفاقه . فهو لا يزال ، في نظر انبياء القرن الثامن ، اعظم الآلهة ؛ ومن حيث انه خالق العالم ، فإنه يستطيع ان يخاطب العالم بأسره : « انصتي أيتها الشعوب ، انصتي جميعاً ! واصغي ايتها الارض ، انت وكل ما تحتون عليه » . ولبكن هذا لا يحول دون وجود الآلهة الآخرين . فان ارميا يؤكد ان « ليس من نسمة حياة في كافة الآلهة » ؛ كما يؤكد سفر تثنية الاشتراع ان « يهوه إله في السماء وعلى الارض وليس من إله سواه » ؛ وينسبون اليه بعد النفي قوله : « انا اله ، وليس من هو شبيه بي » . وهكذا تم انتصار الايمان باله واحد .

وقد جرت هذا بصورة حتمية الى تهذيب اخلاق يهوه وتحويله الى روح . اجل انه يبقى اله « الجنود » ولكن هؤلاء هم الجنود السابويون ، جوقات الملائكة . وهو اكثر من اي وقت آخر ينادي بالعدل : « ان يهوه الجنود سيرتفع بالقضاء ، والاله القدوس سيتقدس بالعدل » . وقد تبرز أحياناً الفكرة القائلة إن السعادة المادية ليست دليلاً على عطفه ؛ وهكذا تميزت الروح عن المادة .

فليس ، بعد ذلك ، من محركات في القرابين . والتقوى الحقيقية انما تقوم في قلب المؤمن لا في الطقوس التي يتمشى عليها . فقد قال يوشع : « انا احب التقوى لا القرابين واؤثر معرفة الله على المحرقات » . وقال عاموس : « أبغضت » كرهت اعيادكم . ولست التذ باعتكافاتكم ..

وذباح السلامة من مسمّاتكم لا التفت إليها . ابعد عني اغانيك ، ونعمة ربّيك لا اسمع .
وليبحر الحبّ كالنباه والبر كنهر دائم . وقال اشعيا : « ازيلوا من امام عيني خبث اعمالكم ؛
انقطعوا عن عمل الشر ؛ تعلموا عمل الخير ، اطلبوا العدل ؛ احبوا اليتيم ؛ اعطوا اليتيم حقه ؛
دافعوا عن الارملة » .

ثم ان التطور ، في موضوع الطقوس ، لا يقف عند هذا الحد ؛ فتتخف فـيا بعد مقاومة
البذخ في الهيكل ، لان العبادة فيه قانونية وبعيدة عن التدنيس . وبالإضافة الى ذلك ، فإن
النظام الكهنوتي ، بعد النفي ، يؤدي الى حملة مختمة في سبيل طقوس تتصف بالمزيد من الابهاز
والدقة والمراقبة . وستتخذ الفرائض الغذائية وحفظ يوم السبت ، بنوع خاص ، صيغاً بالغة
الشدّة قد يفرضي الخلاف حولها ، في نقاط لطيفة غالباً ، الى اطلاق العنان للبحث والتمييز
والجدل . ولكن الفريسيين لن يكونوا يوماً كل ديانة اليهود ، وستترك الوثبة الادبية التي نهض
بها الانبياء ، في هذه الديانة ، أثراً لا يمحي .

وهذا ما حدثت لشرعية ايضاً .

الرابعة

فان العبرانيين يتفردون منذ ايامهم الاولى بانهم ادخلوا ، اذ من اي شعب آخر ،
الاشلاء ، في جميع شريعتهم ، وشريعةهم في جميع ديانتهم . فاللاهوتي فيهم لا يميز عن المشترك
ومذهب الاشلاء . وهذا اذا ما نظرنا لتلك العهد في كل مكان . بيد ان تطور الشريعة يعكس ايضاً ،
بحسب الضرورة ، التنظيم الاجتماعي ودرجة الفعل الذي تثيره تغييراته . فانت هنالك تطورا في
الراقم ، بل ان الفرائض الالهية التي تؤلف الشريعة (التوراة) قد جمعت من مصادر مختلفة في
تواريخ لا يمكن تحديدها . لذلك فاننا سنقدم الحلّام ، الى الخطوط الكباري .

ليس من شك حول مبدأ التأثيرات الأجنبية ، والبابلية منها بنوع خاص ، إذ ارتب وسايا
موسى العشر نفسها حادثة العهد اذا ما قورنت بالقوانين الشرقية الاخرى . وكذلك فان
الشرعية العبرية قد تأثرت بالتنظيم القبلي ، لعل ان الدائرة قد اتسعت حتى شملت الامة بأكملها .
ولقد ان الشريعة لم تنفك شريعة شعب جعلتها مصانبه قيسل لغو ذره الاجانب . فمهما كان من
رواية اهل يهود مثلاً ، فان الرواج من الاجنبيات ، قد بقي شراً ، والربى ممنوعاً بين
المواطنين ، واستعباد الاجنبي غير محذور ، في حال ان استعباد الاسرائيلي يجب ان ينتهي
في اول السنة السابعة لاقتصاداً . بيد ان الدرع المقاتلة قد استمرت ، لا سيما خارج التوراة .
فقد جاء في الامثال : « لا تفرح بسقوط عدوك » ، « واذا جاع عدوك ، فاعطه طعاماً واذا
عطش ، فاعطه ماء ليشرب » . ولعل الغلبة لم تكن لهذه النزعة .

وما يلفت النظر ان الشريعة العبرية قد بدت بغلج بالسماح للعادات الطقسية بان تتسرّب الى
وسايلها . والوسايل إنما تختص باستعدادات الانسان الداخلية الخاصة وبسلوكه الاجتماعي ولم
تدخل عليها سوى حد أدنى من واجبات الاحتفالات والمظاهر الخارجية . فبالمقابلة للمفهوم

الطهارة الجسدية ، افسحت مقاماً واسعاً للطهارة الروحية . فاتيح الانبياء اذن ان يشددوا بسهولة على هذا التمييز . وقد اظهرت عدّة نصوص مما سبق الاستشهاد به الاتجاه المتبع في ذلك . ولننصف هنا اللوم الموجه للنبي والمقتدر للذين يضران بالفقير ويسبّيان استمهال ما اوتياه من سلطة . فعاموس يصم بالعار اولئك الذين « باعوا البار بالمال والفقير بنعلين » . « يرقدون على اسرّتهم ؛ يستلقون على فراشهم الوثير ؛ يأكلون حلال القطيع والعجول المسمنة ؛ يشربون الخمر في الكؤوس الكبيرة . يمسحون اجسامهم بافضل الزيوت » . ويتوجه يهوه ، بفهم نبي آخر ، الى الرؤساء والامراء قائلاً : « ألستم انتم من يجب ان يعرف العبدل ؟ انتم تبغضون الخير وتحبون الشر . انتم تسلخون لحم الجلد واللحم من فوق العظام . هم يفتارسون لحم شعبي ... » وهكذا فان الجهد المبذول في سبيل تهذيب الاخلاق قد شارب الثورة الاجتماعية التي كان من شأنها ، لو حصلت ، ان تهدم نتائج التطور الاقتصادي .

وقد انتهى هذا الجهد ، في الواقع ، الى تشريع رائف بالواطينين والضعفاء ، لناس عنه في تثنية الاشتراع اكثر من مثل : « لا تهضم اجرة مسكين ولا فقير من اخوتك او من الدخلاء الذين في ارضك في مدحك . بل ادفع له اجرته في يومه ولا تغب عليه الشمس لأنه فقير وبها يعول نفسه ... لا ترتهن ثوب أرملة ... اذا حصدت حصادك في حقلك فليسيت حزمة في الحقل فلا ترجع لتأخذها ، انها تكون للغريب واليتيم والارملة ... واذا فرطت زيتونك فلا تراجع ما بقي في الاغصان ... واذا قطفت كرمك فلا تراجع ما بقي منه ... » انهم لمعربي آراء أخلاقية انسانية غدت تشمل الدخيل نفسه . نعم قد يكون لها سابقاتها في الشرف ، ولكن لم يسبق ان عبر عنها بمثل هذا الحزم ومثل هذه الدقة .

بيد ان التطور قد أصيب بالركود بعد ان أثبتت نتائجه في نصوص التوراة النهائية . وقد تضافر كل شيء لإيقاف هذا التطور بعد تهدئة الحركة الاجتماعية التي أثارها العودة من النفي : التنظيم التيوقراطي الذي اسبل نفوذاً وقوة على كهنوت حارس الشريعة ، وبالتسليم بالضرورة ؛ مفهوم الشعب المختار الذي جسد العبرانيين في انفرادهم الملهم بالتحدي لكل ما هو جنبي ؛ تجديد العهد بينهم وبين يهوه الذي احوال وجودهم فضيلة . عند ذلك بدأ الجفاف ، اذ ان الامانة للحرف قد جرّت الى خيانة المعنى .

التفرد الديني والاخلاقي غير ان النتيجة كانت ، على كل حال ، فتحاً بالغ الاهمية : التفرد . واول من سلك طريق التفرد هم الانبياء . فلم يقيم بينهم وبين يهوه اي حاجز ، شيئاً كان ام شخصاً . والروح الالهية كانت حاضرة فيهم فغداوا عبيدها . وقد حاول بعضهم مقاومتها ولكن دون جدوى . ولكن عبوديتهم كانت عبودية مبدئية لا تمل ابراراً وسيطاً ، بحيث ان كلا منهم قد تصرف حيال غيره من البشر بكل حرية واستقلال .

وبديهي انه لم يعط لكل انسان ان يطمع بمثل هذا الاستقلال لان العبودية تلك لم تتوفر

للجميع . ولكن تعليم الانبياء قد فرض على كل انسان ان يتوق اليها بكل قواه وفضيلته ، كما ان تطور يهوه وعبادته قد جعلنا من هذا التوق امراً واجباً . وقد اصبحت الديانة ، قبل اي شيء آخر ودون اي شيء آخر تقريباً ، داخلية وفردية وذاتية ، حيال اله روحاني ودمت الاخلاق . فقد ورد في تثنية الاشتراع ان الشريعة «قريبة جداً منك» ؛ بل هي في فيك وفي قلبك . فوضعت بذلك قاعدة يمكن ان ينجم عنها نتائج لا تحصى .

بيد ان اسرائيل قد اقتصرت منها على هذه النتيجة : وهي ان كل انسان يجب ان يكون مسؤولاً عن اعماله وحدها دون غيرها . فحكمت بذلك على المسؤولية الجماعية التي تترتب على المجرم في شخصه وفي شخص انسالة واسرته على السواء . وكانت هذه المسؤولية ركناً من اركان هيكل التنظيم الاجتماعي القديم ، ولكنها لم تكن لتتفق والتعليم الاخلاقي الجديد والفكرة الدينية الجديدة ، حتى والظروف الحياتية الجديدة ايضاً ، لان موجبات التفرد الاقتصادي ، على هذا الصعيد ، تنسجم وموجبات التفرد الديني والاخلاقي : فكيف يجوز تعاطي التجارة دون تحديد مسؤوليات الافراد ؟ وكيف يمكن ، من جهة ثانية ، ان يستمر العمل بالقاعدة القديمة ، في حالة التشتت التي وصلت اليها اسرائيل بفعل الإحن التي نزلت بها ؟ لذلك فلا عجب في ان نرى ارميا اولاً وحزقيال ثانياً ينتكران للمثل السائر القائل إن تضرس الاولاد مرده الحصرم الذي يأكله آباؤهم : « انما يتضرس آكل الحصرم نفسه » . فانتهدت تثنية الاشتراع من ذلك الى الاستنتاج التالي : « لن يمات الآباء بحريرة الابناء ولن يمات الابناء بحريرة الآباء ، بل كل يمات بحريرة خطيئته » .

ولم تحرز الفردية نجاحات اخرى . لا بل كان من الواجب ايضاً ، لو امكن ذلك ، تقديم البرهان على ان الفضيلة ، تلقى ابداناً ثوابها والردية تلقى ابداناً عقابها في شخص من تنسب اليه دون غيره . ولكن شتان ما بين هذا التمني والواقع . فمعضلة وجود الشر المقضة كانت حينذاك مطروحة دون حل . فبعد النفي ، اي بعد ان ظهر اثر الثنوية الايرانية ، وضع بعضهم الشيطان او بليال بازاء يهوه ولكن دون مرتبة . وكانوا قبل ذلك يحلون كل شيء عن ذلك وعن الابالسة ؛ فاسم الابليس ازمودي مشتق من الفارسية مثلاً . وشدد غيرهم على فكرة الدينونة الاخيرة ، تلك الكارثة النهائية التي ينال فيها كل شخص جزاءه . وفي هذا ايضا يبدو الاثر الايراني . ولكن هذين الحلين لم يخرجنا عن اطار النظريات التي لم تصادف تأييداً اجماعياً ولا تأييداً رسمياً . فقد ولّى زمن التطور الخلاقي .

ولكن هذه المساعي توضح الطريق الطويلة التي سلكها العبرانيون .
تسقط العبرانيين الكبير
تميز العبرانيون بتفردهم منذ البداية ، ولكن هذا التفرد المحدود نوعاً ما لا يكفي لان يبرر القسط الذي تدن به الانسانية للعبرانيين . فان الامة العظمى لدورهم المقبل نشأت من حيث انها باشرت اخراج الانسان من المجموع في الحقل الديني نفسه الذي كان

الانسان فيه اكثر ما يكون انصاراً في هذا المجموع . وقد توفقت الى هذه النتيجة ، مثبتة ، في الوقت نفسه ، الانسان في ديانتة . اما تفسير هذا التناقض الحقيقي ، في الظاهر على الاقل ، فيجب ان يبحث عنه في ما قام به العبرانيون ، بتأثيرات شتى ، من تنقية واستقصاء المشاعر الدينية .

وقد اصطدمت هذه النزعة بالمقاومات في بلاد العبرانيين نفسها ، حتى انها ، نحو ابي او اخر القرن الخامس قبل المسيح ، بدت وكأنها تغلبت عليها النزعات المضادة المتسكة بالشكليات وبالشرعية . ولكن بذراً لا يفتى كانت قد بقي في الارض ستزيد من قوته تأثيرات اخرى فينبت في المستقبل حصاداً روحياً لا تزال ملايين البشر تتغذى به حتى يومنا هذا .

الفصل الثامن

الحضارة اليونانية القديمة (أي السابقة للعهد الكلاسيكية)

لننظر الى الاغريق بعد ان تنظم هذا الشعب واستقر في الرقعة المعدة لان تكون وطناً له : جنوبي شبه الجزيرة البلقانية ، والجزر الايحية ، وساحل آسيا الصغرى الغربي الذي سيقم فيه حتى اوائل العهد المعاصر . انتهت حينذاك في تاريخهم حقبة كثيرة الغموض يزيد في بدائية حضارتها ان هذه الحضارة خلفت الحضارة الايحية المزدهرة . والكلام هنا عن «القرون الوسطى» اليونانية ليس بالتسمية التاريخية الكيفية . وفي اوائل القرن الثامن قبل المسيح تبدأ حقبة اخرى .

لما كان من الضروري ان يطلق عليها اسم ما ، وصفت بـ « القديمة » للمقابلة بينها وبين الحقب اللاحقة . وفي هذا الوصف تشديد على الاواصر الوثيقة التي تربط الاغريق حينذاك بالماضي وتعيق حركاتهم . وهم لن يفوزوا بالحرية إلا في اوائل القرن الخامس ، فيستثمرونها ايما استثمار . ولكن طاقات فتية برزت ، حتى في ذاك العهد ، فحدثت في البلاد تغييرات على درجة من الاهمية . وبانت على الخريطة نفسها تبديلات محسوسة . فتوسع العالم الاغريقي مرة اخرى ، وتأسست اسواق تجارية جديدة على جميع شواطئ البحر المتوسط والبحار الملحقة به تقريباً ، وفرضت الامبراطورية الفارسية سيطرتها على الممتلكات الاغريقية في آسيا . ولا حاجة هنا للكلام عن المنافسات التي قامت بين بعض الدول الاغريقية الاخرى . ولكن سرد هذه الاحداث لا يدخل في ما يستهدفه هذا الكتاب ، بل يجدر بنا ان نشدد على احداث اخرى تكشف لنا عن تغييرات في الصميم من هذا الشعب ، لا سيما وان الموضوع يعود بالنتيجة الى يقظته . تلك هي التحقيقات الاولى لحضارة ستعرف مثل ذلك المستقبل الباهر ومثل تلك التسميات البعيدة . وتلك هي الوعود والدعائم التي اخذ الانسان يكتشفها فيها كي يخرج شخصيته من المجموع أو لا يتركها تحتقن فيه على الاقل . وان وجود كل ذلك في طيات هذه الحقبة لبشير بان ايامها لن تطول .

لذلك فان كل من وجد آنذاك امام الحضارة اليونانية قد اهتم اهتماماً حقيقياً للتطور البادي . والتطور ، بحد ذاته ، أمر محتوم يعم كل الشعوب . ولكن الجميع لا يحققونه بمثل هذه السرعة

وبمثل هذا الشمول . ولا يعي الجميع خصوصاً معلولاته المتداخلة ونتائجه الطارئة ؛ أو انهم اذا رأوها يشعرون في اغلب الاحيان بميل طبيعي لان يرثوا له . نعم ، لقد وجد بين الاغريق ايضاً من استاء وأبدى استياءه . ولكنهم ، شأنهم في غير مكان ، لم ينجحوا في منع أي شيء ، لا بل انهم لم يلقوا هنا الآذان الصاغية التي لفقوها في غير مكان . وقد وجدت خرافة العصر الذهبي ، في هذه الحضارة ، الدواء الناجع الذي تمثلته في توق جديد الى التغيير . فقد جاء الاغريق ، بالفعل ، بجدّة روحية هي خيال مجنح لم يخفه اقدم ولم يتراجع عن اكتشاف الوسائل الكفيلة بتحقيق احلامه . ولكنهم لم يكتفوا بوضع دستور للتقدم او لما اعتبروه تقدماً : فسيأتي يوم يتيهون فيه ويتخيّلون « المستحيلات » الاولى . غير انهم لم ينتظروا ذاك اليوم لتحقيق اشياء جديدة كثيرة . ولكن يجب الانغالي في اهمية هذه الحقيقة حيال هذا العهد . فنذ اوانل القرن الثامن حتى اواخر القرن السادس ليس هنالك سوى مقدمات فقط جعلها القسم الاكبر من العالم الاغريقي أو لم يأبه لها . ولكن يكفي ان تؤخذ بعض المناطق اذ ذاك بسحر هذه المقومات حتى يكون اتساعها المقبل جديراً باهتمام خاص .

فعرضنا لهذه الحضارة لا يمكن ان يعتبرها ، حتى في العهد القديم ، كمعطية ثابتة . بل سيهتم فيها عن قصد ، لكل ما يتطور وينبئ بالمستقبل . ولذلك فانه سيهمل اشياء كثيرة ستسنع الفرصة المؤاتية لتوضيحها عندما يكتمل تفتح الحضارة الاغريقية وبصبح باستطاعتنا ان نأخذ لها رسماً اكثر استقراراً .

١ - التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي

ان عوامل التطور السياسي متعددة . ففي الخلايا الصغيرة التي كانت المدن اليونانية قوامها والتي انتظمت في عهد مبكر اجهزة شديدة الحرص على استقلالها والتي اهلّت ببضعة آلاف من السكان فقط - عشرة آلاف على الاكثر - ، يمكن لاسباب عابرة او محدودة الاهمية بحذ ذاتها ان تفعل فعلها وتترك أثرها : كسيكولوجية الانسان الشخصية مثلاً ، أو حرب تثير الحمية على الرغم من هزال غايتها ، أو تهديد يصدر عن جار قوي الشكينة . واذا ما ألقينا نظرة شاملة على العالم الاغريقي بأسره ، تبدت لنا العوامل الاقتصادية والفنية والاجتماعية المتداخلة والمتفاعلة . ولكن التطور السياسي الذي تسببه هذه العوامل يمكنه بدوره ان ينعكس عليها .

المجتمع القديم ريفي قبل كل شيء من حيث انه وليد مجازفات الغزو
ومعارك الفتح وتسويات الاستيطان . ومثل الانسان الأعلى ، الذي
ذور الاملاك الواسعة
ثبتت قوته دلائل كثيرة كتبت لها حياة طويلة احياناً ، هو الاستقلال
الاقتصادي الضروري للاستقلال الادبي : فلكي يستطيع الانسان ان يعمل او يتجول على هواه ،
يجب الا يكون مقيداً بأهواء زبون أو صاحب عمل . ولم يكن تحقيق هذا المثل الأعلى ممكناً ؛ لا
لذوي الاملاك الواسعة ، وهم إما أبطال حروب وإما انسال هؤلاء الابطال ، وقد نعموا في الوقت نفسه

بثروة وفيرة . كان تملك الارض ، بالفعل ، عنوان الثروة الوحيد تقريباً ، وكان هنالك اصحاب حرف لا شأن لهم وتجار لم يصل الينا منهم شيء يذكر . فالتجارة البحرية التي مارسها المسيينيون على نطاق واسع قد اصبحت بنكسة اكيدة على الرغم من استيطان الاغريق الباكر في شواطئ آسيا الايجية . واحتفظ الفينيقيون لانفسهم آنذاك بالمتوسط الغربي وكانوا يظهرون حتى في بحر ايجه . ولم يشر هيزود ، في القرن الثامن ، بالسفر بجزراً إلا على الفلاح التاعس الازح تحت عبء الديون ؛ وتجدر الاشارة هنا الى ان الغاية من ذلك انما هي بيع جزء من الموسم لا لزوم له في الاستهلاك يمكن التصرف به ، في الاوقات العادية ، للهدايا والهبات . وكان هنالك فلاحون صغار يمتلكون بحرية بعض الاراضي ، ولكنهم عاشوا عيشة قاسية في ارض قليلة الخصب حيث تحدد الحرارة الجافة المبكرة من انتاج الحبوب . وقد قام قسم من سكان الارياف بأعمال مأجورة في حقول ذوي الاملاك الزراعية الواسعة .

استطاع هؤلاء وحدهم لا ان يتغذوا عن سعة فحسب - وقد اطلق عليهم ، حتى في العهود المتأخرة ، اسم « البدن » - بل ان يكرسوا ايضاً لارضاء شهواتهم قسماً من مواردهم . وقد برهنوا في مراحل تاريخهم المختلفة عن ميل للبذخ والزينة ابرز ما ينطوون عليه من رغائب بدائية . فقد حرصت هذه الارستوقراطية على ان تتميز في استعمال الاسلحة وان تعنى بالحفاظ على صفاتها الجسمانية لاجل القنص . وأحييت الولايم الفاخرة والمثروبات الروحية . وقد سخّرت لخدمتها في مساكنها الرحبة الكثير من الأرقاء الممثلين لاهوائها . وقد طاب لها عرض ما تنعم به من قوة وثروة . ولكنها اجلت ايضاً الاقشة والحلي النادرة ، والموسيقى وانشاد المغنين . فكأن مثلها الأعلى ، الذي لم يقو تطورها الاجتماعي اللاحق على ازالته ، ولم يتنكر له على كل حال ، بل عمل جاهداً على تعميم نفعه على الطبقات الاخرى ، يجمع بين جمال جسماني متناسق وتهذيب اجتماعي رفيع ومستوى ثقافي لائق . وكان هذا في الحقيقة المثل الاعلى الاغريقي نفسه : انسان حرّ يمارس حريته لتنمية وارضاء مثل هذه النزعات فيه . ولكن استقلال الاشراف قد قام على ارتباط الغير بهم .

لذلك فان هذه الامتيازات لها ما يبررها غير التملك : فالقيمة الشخصية انما تتجلى في الحرب . كان لذوي الاملاك الواسعة وحدهم متسع من الوقت لاتقان التمرن ، والموارد الضرورية لاقتناء سلاح كامل ثقيل وغالي الثمن ، وامكانية لتربية الأحصنة . وستبقى رياضة ركوب الخيل ، خلال قرون طويلة ، شهادة في الارستوقراطية لأن الارستوقراطية وحدها في البدء تمكنت من الانقطاع اليها . وكان على المحارب الحقيقي المجهز بأسلحة ثقيلة ان ينتقل الى ساحة المعركة على عربة ، يقودها حوذي ثم يقوم بجراستها ، بينما تحتدم المعركة بين سيده وعدوه الرّاجلين . أما المواطنون الآخرون فكانوا ينخرطون في الجندي كمشاة ويقتنون الاسلحة التي تمكنهم مواردهم من اقتنائها وقد لا تتعدى المقاليص أحياناً . ولكن عددهم لم يرتفع قط عملياً : فمصدر المعركة يتوقف الى حد كبير على مآثر الاشراف .

كان هؤلاء ، اذا ما حاربوا ، يخدمون الدولة ، فيولهم ذلك حقاً بإدارتها . ولكن الحرب من جهة ثانية كانت تعطيهم حق الانتفاع الشخصي بالغنيمة والرهائن . وكان يطيب لهم مزاوله القرصنة . فهناك مشاهد إبحائية مرسومة على آنية « الديبيلون » المدفنية الكبيرة في أثينا : مراكب حربية واعمال نهب وعرض محاربين وعربات عسكرية . تذكر هذه الصور بطبقة عسكرية تطلب المجد في شاطها الحربي وتباهى بعرض قوتها وثروتها .

حدث إذن توزيع اجتماعي فعلي على أساس الثروة والقوة ، رافقه توزيع أراسر الدم آخر على أساس الأصل والانتساب . ولكن هذا التوزيع الأخير يكتنفه الغموض لأنه على جانب كبير من الاصطناع ؛ بيد ان نتائجه ثابتة لا يرقى اليها الشك .

وأخذ المواطنون ، داخل المدينة ، ينتظمون جماعات يتدنى عدد افرادها يوماً بعد يوم : القبيلة ، ثم « الأخوية » وأخيراً « الجينوس » الذي يأتي مباشرة فوق الاسرة ، وهو القبيلة المحدودة أو الاسرة الكبيرة . ويبدو ان القبيلة والاخوية قد انتظمتا في كل مكان تقريباً ، في حال ان الجينوس لم يتأكد وجوده سوى في مدن معدودة . ويضم كل من هذه الجماعات مبدئياً ، في درجات نسبية مختلفة ، أولئك الذين ينحدرون من جد واحد والذين يتوجب عليهم ، بالتالي ، الاشتراك في عبادة جماعية . غير ان هذا التفسير ينطوي على الكثير من التبسيط ، اذ انه لا يوضح لنا ، بنوع خاص ، لماذا يسجل المواطنون دون استثناء في القبيلة في حال ان الكثيرين منهم لا ينخرطون في أي « جينوس » أو ليس لهم به سوى علاقة غير مباشرة كزبن لاحد الاشراف .

سنقتصر ، اختصاراً في الجدل ، على التثبت من واقع ، وهو ان النسب قد نام بثقله على التوزيع الاجتماعي وبالتالي على وجود المواطن . فليس لهذا الاخير شأن ، كفرد ، بل كعضو في جماعة يصهره فيها انتسابه اليها وتقوم هي بدور الوسيط بينه وبين المدينة . ولكن شخصيته تعميقها أبداً أو اصر الدم التي لم يكن ليتحرر منها إلا بفقدان حسنات تضامن الجماعة بينما يستمر غيره في الافادة منها . ويفلب ان هذه الحسنات قد اختلفت باختلاف الدول ، ولا تتوفر لدينا بعض الدلائل ، في هذا الصدد ، إلا لأثينا فقط . فقد كان محظراً على من يموت دون عقيب ان يوصي بممتلكاته الى غير أعضاء الجينوس ، مما يميز لنا الاعتقاد بان البيع لم يكن مسموحاً به ايضاً . ومن حيث ان القضاء الجنائي الرسمي لم يكن موجوداً ، فان الاهانة اللاحقة بأحد اعضاء الجينوس انما تلحق بالجينوس بأسره ، مما أفضى الى قاعدة الأخذ بالثأر . فكان المواطن بالتالي امام قياس ذي حدين : البقاء خارج الجينوس والقبول بالعجز ، أو الانخراط في الجينوس والقبول بالخضوع .

وانما تتكلم عن الخضوع لان ذوي الاملاك الواسعة في كل هذه الجماعات ، قد نعموا بنفوذ مسلم به . والثروة العقارية لا تتميز عن النبيل والشرف . فقد طاب للأغنياء التباهي بنسبهم

البطولي ، وحشى الإلهي ، رغبة منهم في الارتقاء الى عالم الاسطورة . وقد هدفوا كلهم من وراء هذا النسب الى الدلالة على الدم الكريم الذي يجري في شرايينهم ، حريصين على إحلال الأبرار في المرتبة الاولى . وهكذا فإن رؤساء الاسر الكبيرة ، باعتمادهم على انسابهم وعلى كل من يرتبط بهم بفعل مكانتهم الاجتماعية وطلاقتهم الاقتصادية ، تمتعوا بنفوذ لا يعادله نفوذ ، وكانوا أسياد « جيتوسهم » .

لم يكن من العسير في هذه المدن الصغيرة ان يعرف المواطن جميع المواطنين الآخرين . ولذلك لم يعوز الدولة تنظيم قوي متين . فلا ادارة ولا موظفين ، بل بيت مال محدود ، يشرف عليه عدد محدود من المسؤولين لأن النفقات تكاد تنحصر في نفقات العبادة ؛ ولا جيش كثير النفقات لان الجندي هو الذي يؤمن شراء اسلحته ؛ ولا قضاء يستحق الذكر لان الدولة لا تعنى بتوزيع العدل إلا نادراً جداً . وقد أفضى ضعف الدولة هذا الى تقوية نفوذ راهن استأثر به رؤساء طبقة الاشراف ولم يكن باستطاعة احد ان يراقبه او يحد منه .

وكانت الدولة نفسها ، على كل حال ، في قبضة يدهم . اجل قامت الملكية في كل مدينة تقريباً . ولكنهم توصوا الى حصرها في لقب لا حول له او الى إزالتها تماماً في بعض الاحيان . واذا ما حدث واستمر بقاء الملك ، فإن هذا الملك يكون عملياً بمثابة قاض سنوي لا تسند اليه سوى مهام دينية . اما الأشراف فهم الذين يحكون ، ولا تلتئم جمعية المواطنين الا شكلياً اذا طاب لهم احترام مبدأ السيادة الجماعية . فالسلطة الحقيقية يتمتع بها « المجلس » المؤلف من اعضاء وارثين او منتخبين وفقاً لأصول هي في الحقيقة مجرد مظاهر خارجية . وكانت مظاهر خارجية ايضاً الاصول المعتمدة لتعيين القضاة السنويين الذين يشرف المجلس على ولايتهم ايضاً . وفي الواقع كان اعضاء المجلس والقضاة ينتخبون من طبقة الأشراف دون غيرها وخصوصاً من كبار هذه الطبقة . وكان القضاء ، مع ان القضاء الرسمي شبه مفقود ، من امتيازاتهم ايضاً ، لاسيما وانه لم يستند الى قوانين مكتوبة ، بل الى اصول تقليدية ، إلهية المنشأ بحسب اعتقادهم ، ينقلها الآباء شفاهياً الى الابناء في أسر قريبة جداً من الآلهة بفعل نسبها وحكمتها الذائعة الصيت . فيتضح ان الاشراف امنوا بذلك ، عملياً ، احتكار القضاء ، وضموا اليه تدرعاً بالاسباب نفسها ، احتكار المهام الكهنوتية الرئيسية . وكان من الطبيعي ، بعد ان سيطروا في ساحات الحرب والمجتمع والحياة الاقتصادية ، ان يسيطروا في الدولة ايضاً .

هكذا كان النظام السائد في كل مكان ، بالرغم من بعض الفوارق المحلية التفصيلية . وهذا هو نظام « الارستوقراطية » أي حكومة الأفاضل (نسباً وصفات) ، أو « الأوليغارشية » اي حكومة العدد القليل ، كما سميت ازدياء في تاريخ لاحق . غير ان هذا النظام لم يوفّر الهدوء والراحة . فالطماع والاحساد والاحقاد قد أدت الى انقسام هؤلاء المحظيين . ولعل فقدان

الثقة فيما بينهم سبب من أسباب رغبتهم عن توسيع سلطات الدولة . وكان التحيز في القضاء مدعاة للشكاوى وللاتهام بالرشوة . فمزيد يصف العظماء « بأستيلة الهدايا » . وكان القراء والمستأثرون ينزحون عن الاوطان ساعين وراء الاراضي أو مغاشرين بحياتهم كمرتزقة في خدمة السلاطين الشرقيين . ولكن الاسباب الحقيقية لتقلبات الاحوال خارجة عن النظام نفسه .

اسباب تقلبات الاحوال :
تقنية الحرب :
فهذه الاسباب متعددة . ولن نهمل منها التطور الذي طرأ على تقنية الحرب .

اصبحت عدة الحرب اخف وزناً ، فخفضت قياسات الترس وادخل المزيد من الجلد على الدرع . وتموّد المشاة من جهة ثانية تشكيل وحدة متراسة ، الكتيبة ، التي يصعب اختراقها بفضل سور الحراب الموجهة نحو الخارج . فعدت العربات دون جدوى سيالها ، ولم تظهر بعد ذلك الا في الاحتفالات الدينية المحافظة على الماضي او في الجيوش القائمة عند حدود الشرق . وظهر الفرسان الذين اختيروا بين النخبة في المجتمع . ولكنهم لن يصبحوا ، الا بعد زمن طويل ، وحدة قادرة على النهوض بالكرات العنيفة . ولذلك لم يلعبوا سوى دور الكشافة او اكتفوا باعداء الجياد في المواكب . وغدا مثال المحارب ، منذ ذاك الحين ، « الهوبليت » ، اي « الرجل المسلّح » ، وفاقاً لاشتقاق هذه الكلمة . ولكنه عملياً كان ذاك المواطن المنتمي الى الطبقة الوسيطة القادر على تحمّل نفقات عدّة حربية اقل كلفة وخادم يساعد في المسير والحياة المادية . وتكامل المركب الحربي ايضاً فضمّر وسهلت ادارته واستخدم فيه المزيد من الجذافين الذين انتظمو صفوفاً يعلو بعضها البعض الآخر . وقد تحققت في كورنثوس ام هذه التحسينات التي تعود الى السنة ٧٠٠ كما يؤكّد «توسيديد» . وظهر بعد ذلك «التريار» وهو النموذج المعروف للمركب الحربي الذي اعدت فيه ثلاثة صفوف للجذافين ويتسع ل ١٧٠ جذافاً موزعين ثلاث فرق ولمشاة يتقانون الى حيث تدعو الحاجة .

فجد ذلك من احتكار الاشراف للدفاع عن المدينة ، فاضطروا للتنازل عن القسم الأكبر من امتيازاتهم لطبقة الهوبليت الوسيطة ، وقسم اصغر سيتسع مع الزمن في المدن البحرية ، للطبقة الفقيرة التي ينتمي اليها الجذافون وهم اقوياء البلية بالرغم من انهم شبه عراة . فتعذر عليهم بالفعل نفسه ، ان يبرروا عملياً استئثارهم بالسلطة السياسية .

اسباب تقلبات الاحوال :
الثورة الاقتصادية :
يكشف لنا تطور المركب الحربي ان اهمية الامور البحرية قد زاد شأنها . فحتى ذاك العهد كاد الاهتمام لها ينحصر في ناحية القرصنة . ولم يتعامل التجارة البعيدة ، في حدود اشتراك الاغريق فيها ، سوى المغامرين العاديين الاعتبار الذين رفضت كل المدن تبني منازعاتهم . ولكن تطوراً اقتصادياً قد حدث ، منذ اوائل القرن السابع بنوع خاص ، هو في الحقيقة ثورة لا تطوّر .

بدأ الاستعمار اليوناني حوالي اواسط القرن الثامن وقد اتصف في اول عهده بطابع زراعي .

وقد هاجر الذين هاجروا تخلصاً من نظام اقتصادي واجتماعي انتهى بهم الى البؤس او الى الخمول . وقد استست اقدم المستعمرات ، في ايطاليا الجنوبية كما على البوسفور ، في افضل المناطق تربة ، دونما اعتبار رئيس للمركز الهام على طريق بحرية عظمى . وهكذا فان خلقيدونيا ، على الشاطئ الآسيوي ، قد استست سبع عشرة سنة قبل بيزنطية ، على الرغم من افضلية موقع هذه الاخيرة ، مما جعل احد الفرس الذين علموا بهذا الفارق الزمني ، يتهم الاغريق بالعمى . ولكن الامور تبدلت بفعل الاستعمار نفسه . فوفّر المزيد من المواد الغذائية . وزود الصناعة بالخامات فنهضت واتسعت اسواقها . وازدهرت التجارة . وبرزت المنافسة . وكيفت بعض المدن سياستها وفقاً لاجراض جديدة فاخترت للاقامة مواقع هامة يتحتم مرور الطرقات فيها ، بقية مضايقة المنافسين ، وبدأت في الظهور « نزعة استعمارية » لا تزال بدائية الى حد بعيد ، على اصطبائها بمشاغل اقتصادية .

واتفق في الوقت نفسه ان فقد الفينيقيون دورهم كوسطاء وحيدين تقريباً مع الشرق . فاستوطن الاغريق نهائياً على ساحل آسيا الصغرى الغربي الذي تقوم وراءه المملكة الليدية حيث استقبلوا على الرحب والسعة ايضاً . واستولوا على الجزر الايحية وعلى رودوس بنوع خاص ، وسيطروا على قسم من قبرص وانتهوا الى تثبيت اقدمهم في دلتا النيل ، فاتصلوا بذلك ، بصورة مباشرة أحياناً وغير مباشرة ابدأ ، بالحضارات الشرقية . فجاءوا منها بالمواد والمصنوعات والتقنيات والمعارف المختلفة . وصرّفوا بسهولة مصنوعاتهم الخاصة .

وحددوا ، في عهد مبكر نسبياً ، احتذاءً بالشرق ، أنظمت الميازين والمكاييل التي لم يتوصلوا يوماً الى توحيدها . ولكن بعض هذه الانظمة عرفت انتشاراً واسعاً . وأوجدت معادلات مختلفة ، بأضعاف الوحدة واجزائها ، لاسيما في حقل النقد . فالتقد قد ظهر ، هو ايضاً ، في اوائل القرن السابع . اما بصدد نسبة ابتكاره الى اغريق آسيا او اغريق أرغوس او الليديين ، فلا يسعنا الخيار بين التقاليد المتناقضة التي يتعذر الجزم في نصيبها من الصحة . ومهما يكن من الامر فان استعمال النقد قد انتشر ، فضربت المدن الاغريقية في آسيا الالكتروت (الكهرباء) خصوصاً ، وهو مركب معدني طبيعي متفاوت العيار . اما في اوروبا فقد ضربت الفضة بالنظر الى ندرة الذهب . فسهلت بذلك المبادلات التجارية الى حد بعيد .

انطبعث الثورة الاقتصادية بهذه التقلبات المتعددة ، ولكنها لم تعمّ كافة المدن الاغريقية حينذاك . لا بل ان مدناً كثيرة امتنعت عن ترويج القطع النقدية او لم تقرر ذلك الا في عهد متأخر . ففي أثينا مثلاً لم تظهر القطع النقدية الرسمية ، حاملة شعارات المدينة دون شعارات الاسر الكبيرة ، إلا خلال القرن السادس . وقد حافظ الشطر الاكبر من بلاد اليونان البرية ، حتى عهد لاحق متأخر جداً ، على اقتصاد زراعي صرف . ولكن الاقتصاد الصناعي - التعدين والمنسوجات والخزفيات - والتجاري قد احرز الغلبة في بعض النقاط ، دون ان يضحى عن قصد ، بالزراعة يوماً من الايام .

نتحقق من ذلك في آسيا الصغرى ، لا سيما في المنطقة الوسطى من الساحل الايحي ، آي يونيا . وكانت « ميله » بلا مراء ، اوسع مدن هذه المنطقة نشاطاً ، عند مصب مهر الميساندر (مندريس) . فقد نعمت ، وحدها ، بالقوة الكافية لان تفرض حتى النهاية على « المرمناد » في مدينة سارد عقوداً بالتفاوض . وقادت حركة التوسع والامتداد نحو المضائق والبحر الاسود فتوصلت ، على ذمة الراوي ، الى تأسيس او استتباع تسعين مدينة أو سوقاً تجارية في هذه المنطقة . واشتركت في الحركة الجماعية التي أدت ، في دلتا النيل ، الى تأسيس نوكراتيس من قبل اثنتي عشر مدينة يونانية منها احدى عشرة شرقية وواحدة اوروبية . وصرفت محصولاتها الى ايطاليا ايضاً ، عن طريق سيباريس المدينة بثروتها الاسطورية لهذه التجارة . لكن جيرانها حاولوا الاحتذاء بها ، ويكفي ، اختصاراً في التعداد ، ان نذكر ان مرسيليا اسمها ايويو « فوقيا » في السنة ٦٠٠ وحافظت على علائقها التجارية الوثيقة بايويو حتى احتلال الفرس لهذه البلاد .

أما في اوروفا فكانت الحركة أقل اتساعاً . ولكنها برزت مع ذلك في القسم الاوسط من « ابل اليونان الشرقي » الذي يعدّه مركزه ، بالتفضيل على غيره ، للعلائق مع آسيا . وقد ظهرت نتيجة ذلك في الازدهار الذي حققته جزيرة « اوبيا » على ضفة المضيق المستطيل الذي يفصل هذه الجزيرة عن اليابسة . بيد ان هذه الحركة تميزت بالنشاط في منطقة بررخ كورنثوس التي أعدها موقعها الممتاز للمقايضات بين الشرق والغرب ، في منتصف الطريق بين آسيا الصغرى والمستعمرات في ايطاليا وصقليا . فبدلاً من الدوران حول البلوبونيز ، أثر التجار ان ينقلوا البضائع من مركب الى مركب عن طريق البرزخ . وقد توصلوا الى اكثر من ذلك بعد حين اذ نقاوا المراكب نفسها على طريق خشبية . فأفادت كورنثوس من ذلك كثيراً لا سيما وان لها مرفأً في كلا الخليجين . فكانت خزفياتها ، لمدة طويلة ، اوسع الحرفيات انتشاراً كما تؤيد ذلك مكنشفات ايطاليا . ولكن النشاط التجاري امتد حولها كما تمتد بقعة الزيت فشمّل « سكيوني » نحو الغرب ، و « ميغارا » او « ايجينا » نحو الشرق . وكانت اثينا ايضاً على مقربة منها ، ولكنها لم تسنقظ من سباتها إلا في القرن الرابع . غير انها تقدمت تقدماً حثيثاً ، وعمد هاية العهد القديم كانت قد اخذت محل مدن « اوبيا » في التجارة وكانت خزفياتها قد تفوقت على خرفيات كورنثوس . وخلال الفترة الممتدة بين الحربين الماديتين ، اتاح لها اكتشاف عروق جديدة ، في مناجمها الفضية ، بناء اقوى اسطول حربي في دلك العهد ، ذلك الاسطول نفسه الذي لعب ، في السنة ٤٨٠ ، الدور الاول في سلامين ضد الاسطول الفارسي العظيم .

اما في « العالم الجديد » اليوناني الذي ابصر النور بفضل الاستعمار ، فان مستعمرات صقليا وايطاليا الجنوبية وحدها قد لعبت دوراً اقتصادياً مستقلاً جديراً بالذكر في هذا العهد . ولكن يجب ألا ننزلق الى المغالاة . فلا شك في ان اردهارها العام قد فات ازدهار مدن اليونان نفسها .

ولكن مرد هذا الازدهار الاول زراعة انتجت ، في سهول اوسع منها في اليونان ، محصولاً اوفر لكثافة سكان دنيا ، فامكن بالتالي تصدير الفائض . وكانت بعض المدن بمثابة مستودعات فنهضت بدور الوسيطات لتصريف المحاصيل اليونانية عند ابناء البلاد الاصليين . ولكن اثنتين منها فقط ارتفعتا الى مرتبة المراكز النشطة بصناعات محلية ناشئة حينذاك ومدعوة لان تنمو وتتقدم : «طارنتا» في ايطاليا وخصوصاً «سيراكوزا» في «صقليا» .

بيد ان الاعتقاد بان الاقتصاد الجديد في العالم اليوناني اتصف باممية عظمى من حيث قيمته المطلقة او النسبية ، فخطأ جسيم جداً . فلم يرافق نموه شيء من الذبول التي يمكن ان يذكرنا بها درس الحضارات العصرية . ولم يكن هنالك « رأسمالية » ولا « اتحاد » مؤسسات للحيولة دون المنافسة . وقد بقي الانتاج حصيلة المشاغل الصغيرة ، كما ان التجارة لم تكن وقفاً على مؤسسات كبيرة معدودة . ويجب القول تكراراً ، من جهة ثانية ، ان الشطر الاكبر من العالم اليوناني قد استمر مرتبطاً بحياة منكمشة على نفسها . غير ان الزمن القديم قد ولّى على غير رجعة .

فمنذ ذلك الحين لم تمثل الثروة العقارية الثروة الوحيدة الممكنة . نعم
الازمة السياسية والاجتماعية
انها بقيت فوق غيرها اعتباراً واحتراماً لانها اثبتت من كل ثروة
ولانها وحدها تتيح مقاربة المثل الاعلى للانسان الحر الذي ما كان الرأي العام اليوناني يوماً ليتخلّى عنه تحلية تامة . ولكن واحداً لم يستطع عملياً ان يهمل الثروة المنقولة . وقد حدث في اغلب الاحيان ان هذه الاخيرة لم تتجمع لدى الاشراف الذين أبقتهم اعتبارات قديمة بعيدين عن الصناعة والتجارة ، طالما لم يشعروا بحاجة الى تجديد ثروتهم . وكانت اكثر الاغنياء الجدد غرباء عن ارسطوقراطية النسب ، ويرجع ان حالات الزواج المختلط لم تعد الاحداث العابرة ، فتوجب على الطبقة الحاكمة ، والحالة هذه ، ان تحسب حساباً لرجال جسرهم بنجاحهم المادي فرغبوا ، هم ايضاً ، في الاشتراك في شؤون الدولة .

ولم يكن المعارضون ، من جهة ثانية ، ليقصروا هجومهم على الناحية السياسية وحدها حيث التحق بهم اعضاء الطبقة الوسطى العاملين كهوليت في خدمة الدولة . فبفعل النشاطات نفسها التي تفرغوا لها ، بدا لهم تنظيم القضاء وتنظيم المجتمع على اساس الجينوس غير وافين بالغرض الذي وضع له ، لانها لا يتلاءمان والاقتصاد الجديد . فهذا الاخير يستلزم قواعد قانونية واضحة تكون بمأمن من هوى القاضي . ويجب ايضاً ان تظل المسؤولية المالية في المشاريع الفردية محصورة في الفرد دون غيره . وهكذا فقد اصبح كل شيء موضوع انتقاد وتجريح .

وقد حدث ما هو اشد وادهمى . ففي بعض المناطق على الاقل ، لاسيما تلك التي بخلت تربتها بانتاج الحبوب ، اضطر الفلاحون الصغار للاستدانة ، ويرجع ان منافسة المحاصيل الزراعية المستوردة قد ثقلت وطأتها . ولكن الاستعباد بسبب الديون ما فتئ ساري المفعول . وكان

المدن العاجز عن الوفاء ، على كل حال ، يفقد حقه في تملك ارضه . فاشتدت الازمة الاجتماعية اذن في المناطق الريفية . ومن حيث ان اليد العاملة في المدن تتمثل بالعبيد جزئياً فلم يتبق امام منكودي الحظ الا احد حلين : النزول الى مرتبة المزارعين الذين يعاملون بكل قسوة ، او الهجرة اما شطر المدن الجديدة النائية واما شطر مغامرات الارتزاق في الجيوش الاجنبية . وقد برز بعض الثوريين الاجتماعيين ببرنامج مؤلف من بندين لن يعتا ان يصبحا تقليديين : توزيع الاراضي وإلغاء الديون . فاصابت سهام هذا البرنامج مصالح كل من الثروة القديمة والثروة الجديدة ، على ان ما اصاب هذه دون ما اصاب تلك .

تفاوتت حدة الازمة وفاقاً للمناطق والمدن . فادت احياناً الى حروب اهلية رهيبة استباح فيها الطرفان حتى التقتيل وتقرر اجمالاً في نهايتها نفي الخصوم وحجز ممتلكاتهم . بيد ان نصاً ثورياً واحداً لم يصل الينا عبر القرون ، في حال ان لدينا قصائد نظمها بعض الحكام من الارستوقراطيين كـ «ألقيا» و«ثيوغنيس» . وكي نكون فكرة عن حدة الاحقاد الثائرة ، يكفي ان نستشهد ببعض المقاطع من ثيوغنيس : «ان مدينتنا لا تزال مدينة ؛ ولكن السكان قد تبدلوا ؛ فارلئك الذين لم يعرفوا فيما مضى لا حقاً ولا قوانين ولم يصلحوا الا لإخلاق جلود الماعز حول كشوحهم للرعاية خارج الاسوار شأن الايائل ، قد غدوا وحدهم الصالحين بينما فقد شرفاء الماضي مكانتهم واصبحوا لا يلوون على شيء ... لست اتراءى العقاب يحل بمن انتزعوا مني بالقوة ممتلكاتي ... آه لو يتاح لي ان اشرب دمهم الاسود ! »

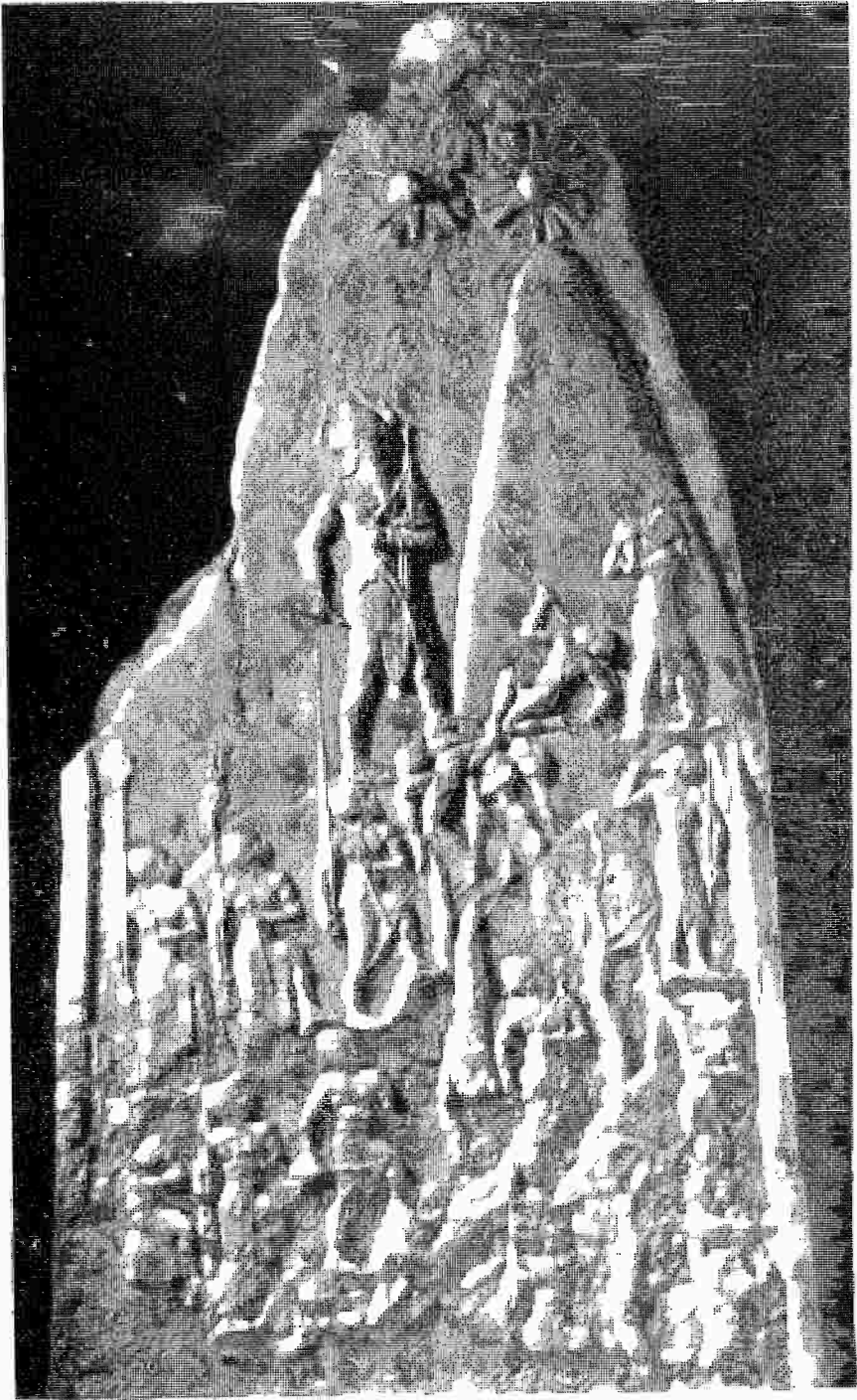
وهكذا فقد طرأ التغيير ، في اكثر من مدينة ، على الوضع القديم القائم . وقد
المشترعون
اختلفت اساليب هذا التغيير اختلافاً بيناً . فنحن ولو وضعنا جانباً الحرب الاهلية ، وأخذنا بعين الاعتبار النواحي الكثيرة التي نجعلها ، يحق لنا الجزم بأنه لم يحدث ان تعاقبت مراحل التغيير وفاقاً لنظام واحد او في تاريخ واحد . واختلفت الوسائل ايضاً ، فهي شرعية حيناً وعنيفة حيناً آخر ، وقد تعاقبت هذه وتلك تعاقباً مطرداً .

فكُلِّفَ إذ ذاك بعض ذوي الاعتبار ، وغيرهم أحياناً من اختيروا من خارج المدينة لتجربتهم ، مهمة وضع شرائع مكتوبة . وتحقيقاً لهذا الهدف ، لم يقتصر احد من «المشترعين» على تدوين الاعراف الراهنة ، بل ادخلوا كلهم نصوصاً جديدة يرجح انها اخذت بعين الاعتبار التطور العام . ومهما تكن الاحتياطات التي اتخذوها بغية الحؤول دون التحويرات اللاحقة — اذ انه من الطبيعي ان يعتقد كل منهم بأنه قام بعمل نهائي — فان الشرائع الصادرة عنهم لم تبد وكأنها تعبير للإرادة الالهية ، أو انها بدت أقل تعبيراً لهذه الإرادة . فلا يمكن باي وجه وسمها بأنها لا تمس . ومن جهة ثانية ، حدثت هذه الشرائع من مدى تسف القضاة .

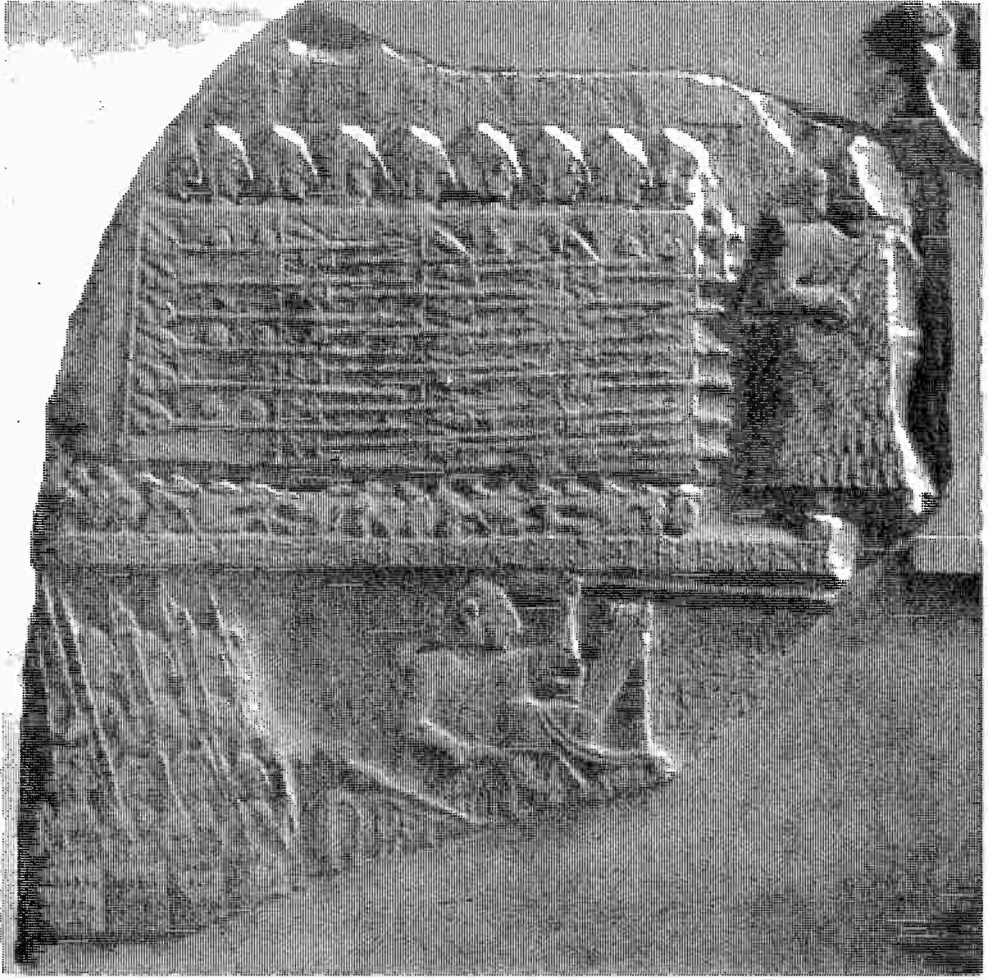
في غير مكان ، أو غير زمان ، انتزع «المستبدون» *Tyrans* الإستبداد والحاصرة اليونانية
السلطة بالقوة القاهرة . والكلمة ليست يونانية الاصل بل انها



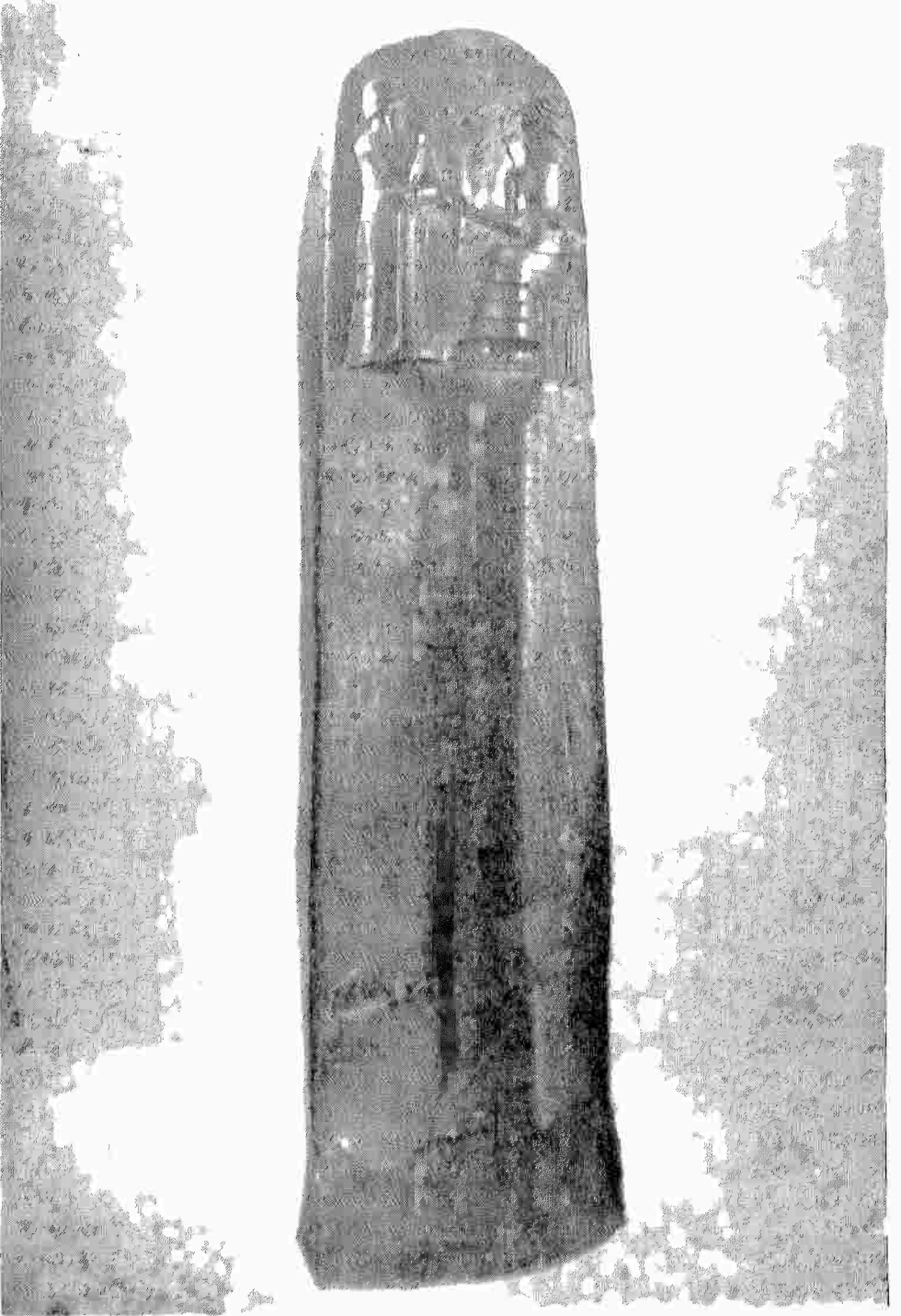
١٧ - أور - نانشي ، ملك لاغاش ، وعائلته (حوالي السنة ٢٨٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر .



١٨ - نصب نصر لنسارام سين ، ملك أغادي (القرن السادس والعشرون قبل المسيح) . متحف اللوفر .



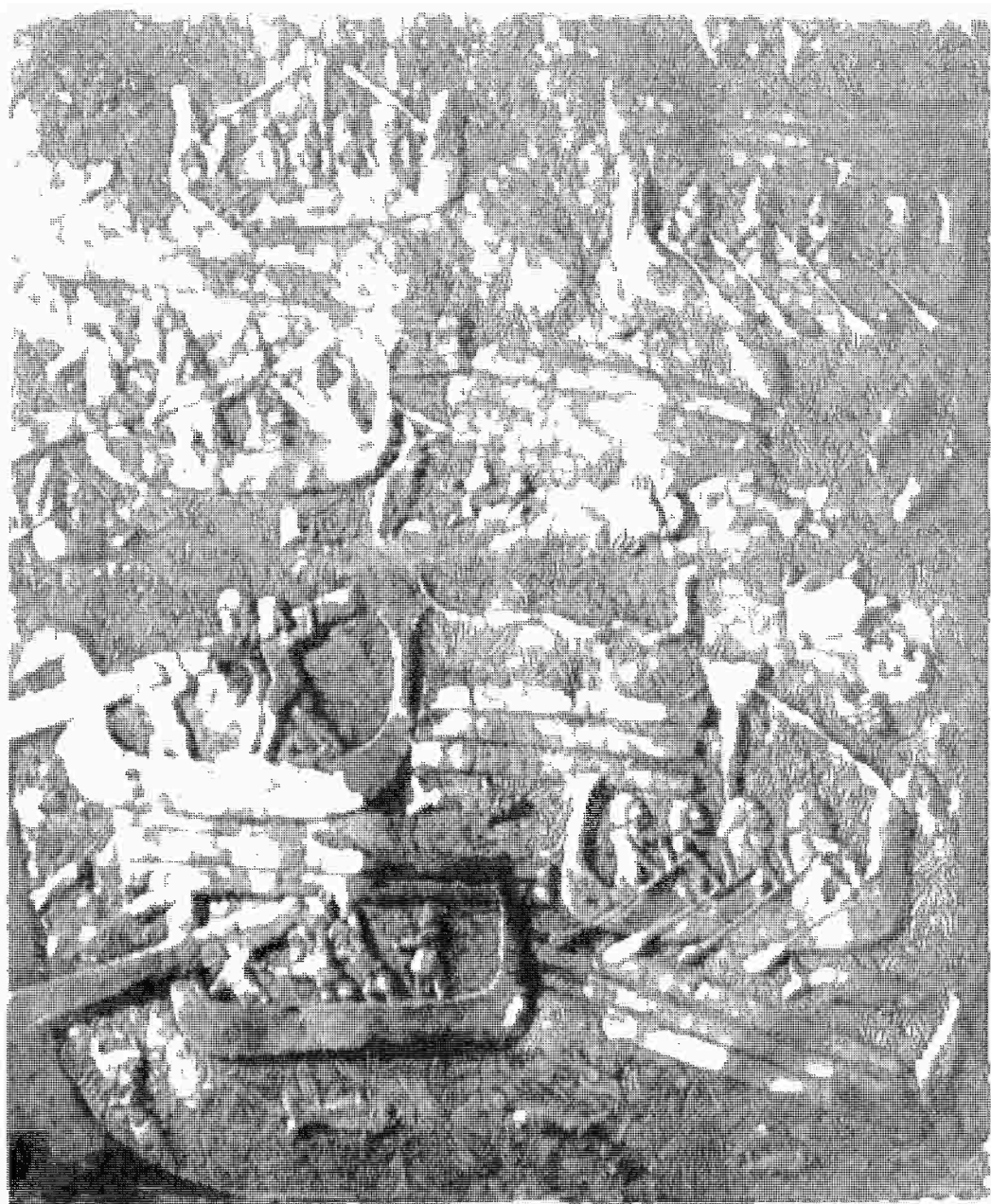
١٩ - سومريو لاغاش ، بقيادة ملكهم ايناتوم ، يدوسون
الجثث في سيرهم الى المعركة (القرن الثامن والعشرون قبل
المسيح) . متحف اللوفر .



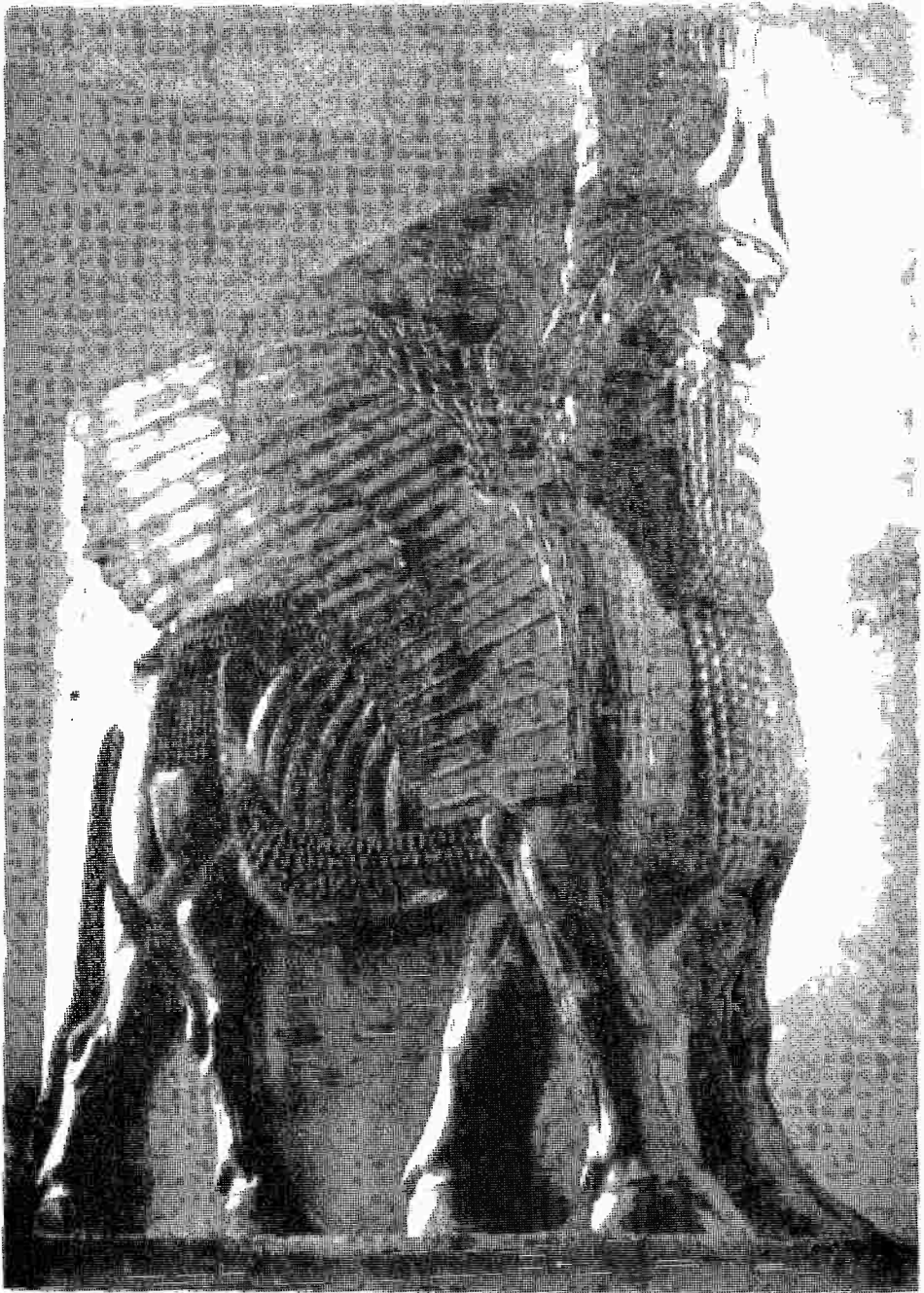
٢٠ - دستور حمورابي ، ملك بابل (حوالي ١٨٠٠ ق)
قبل المسيح) . متحف اللوفر .



٢١ . كودورو بابلي . الملك مليشيباك الثاني يضع ابنه
تحت حماية احدى الآلهات (حوالي ١٢٠٠ قبل المسيح) .
متحف اللوفر .



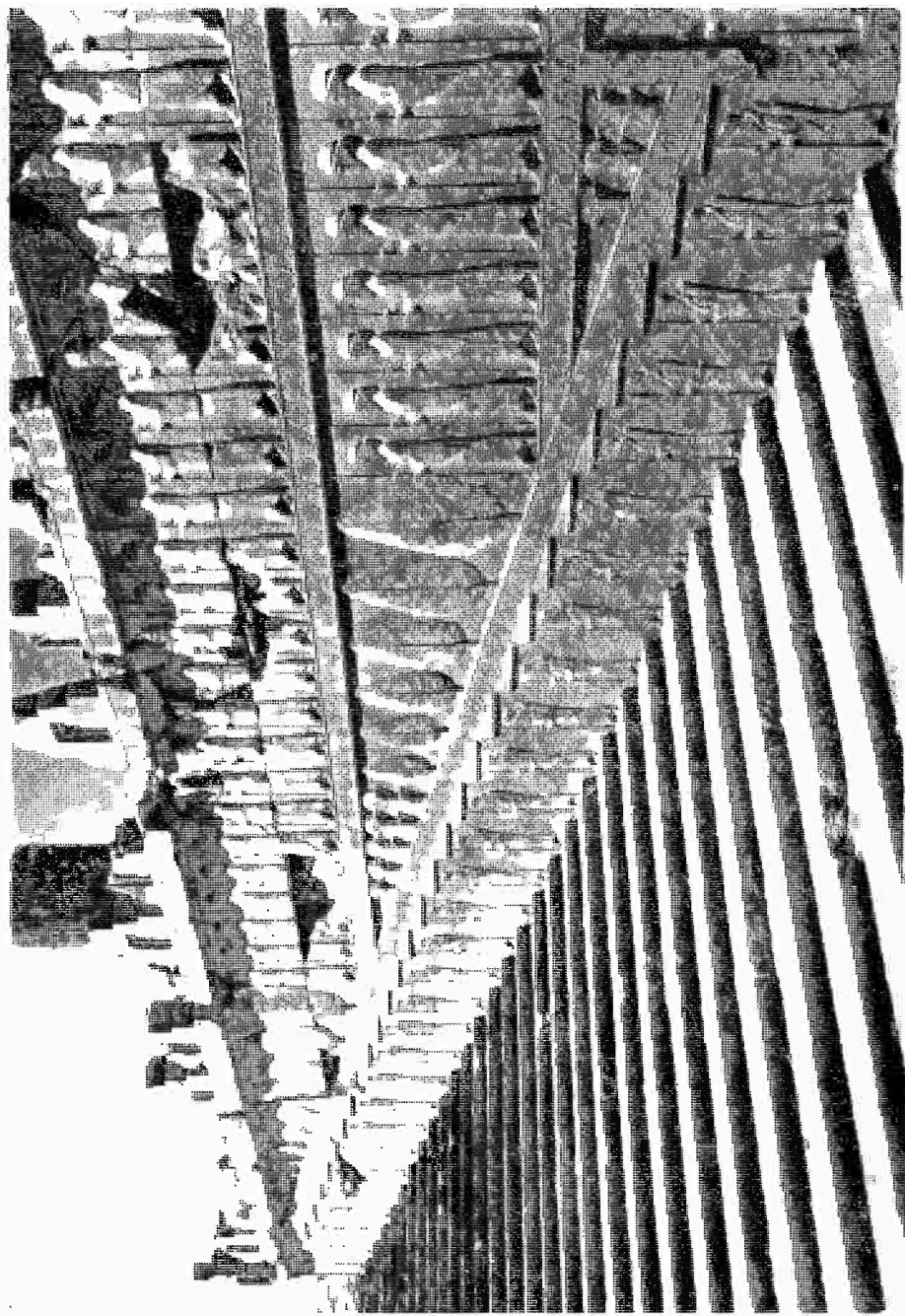
٢٢ النمل البحري . نقش نائير من الأستار مقصر
 مقصر حر مباد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف اللوفر .



٢٣ ثور بجنيح ذو وجه بشري مصدره قصر سرجون
الثامن في حرم سباد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف
اللو فر



٢٤ - الملك اشوربانيبال في عربة أهبة . نقش ناتىء
مصدره نينوى (القرن السابع قبل المسيح) .

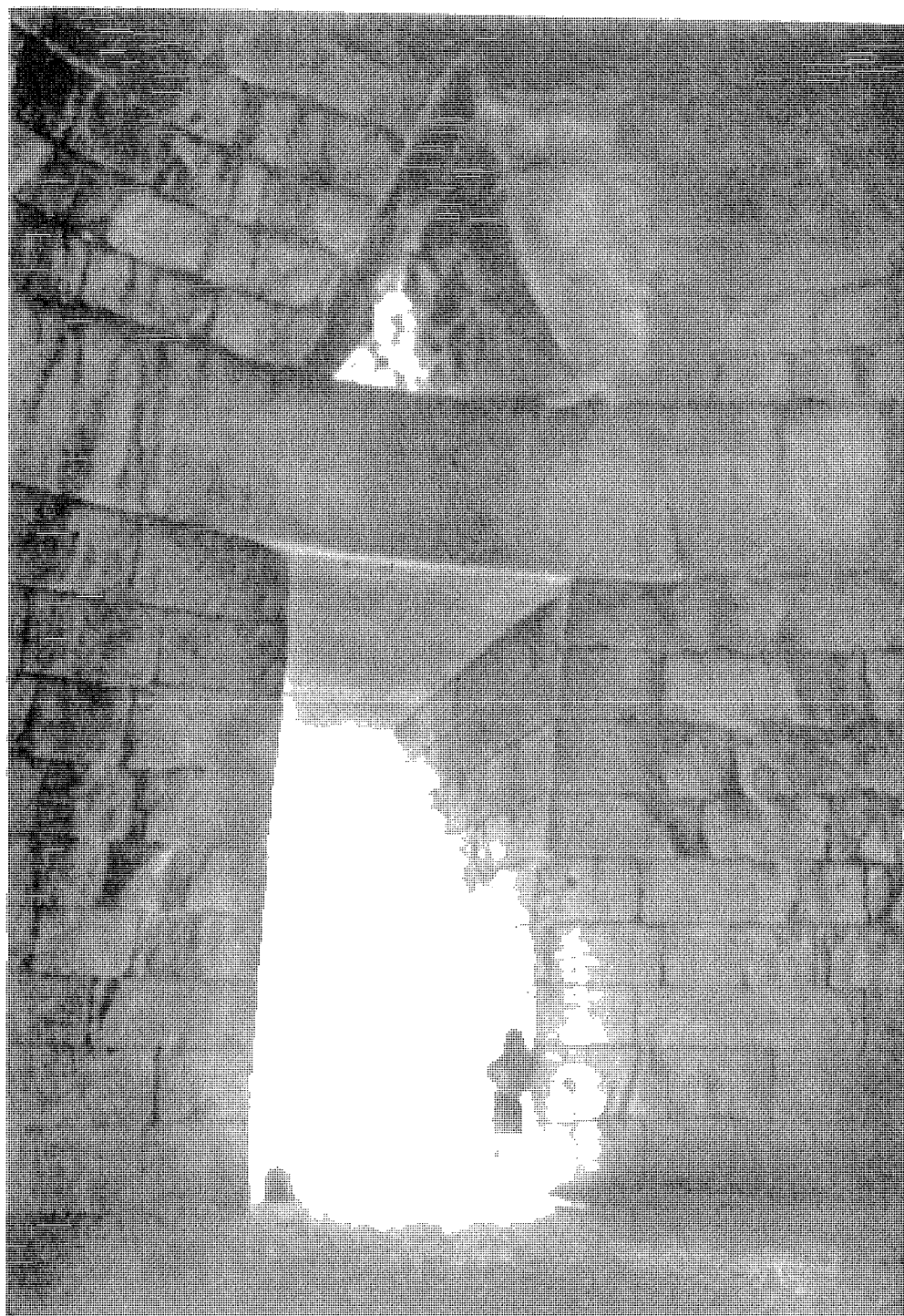


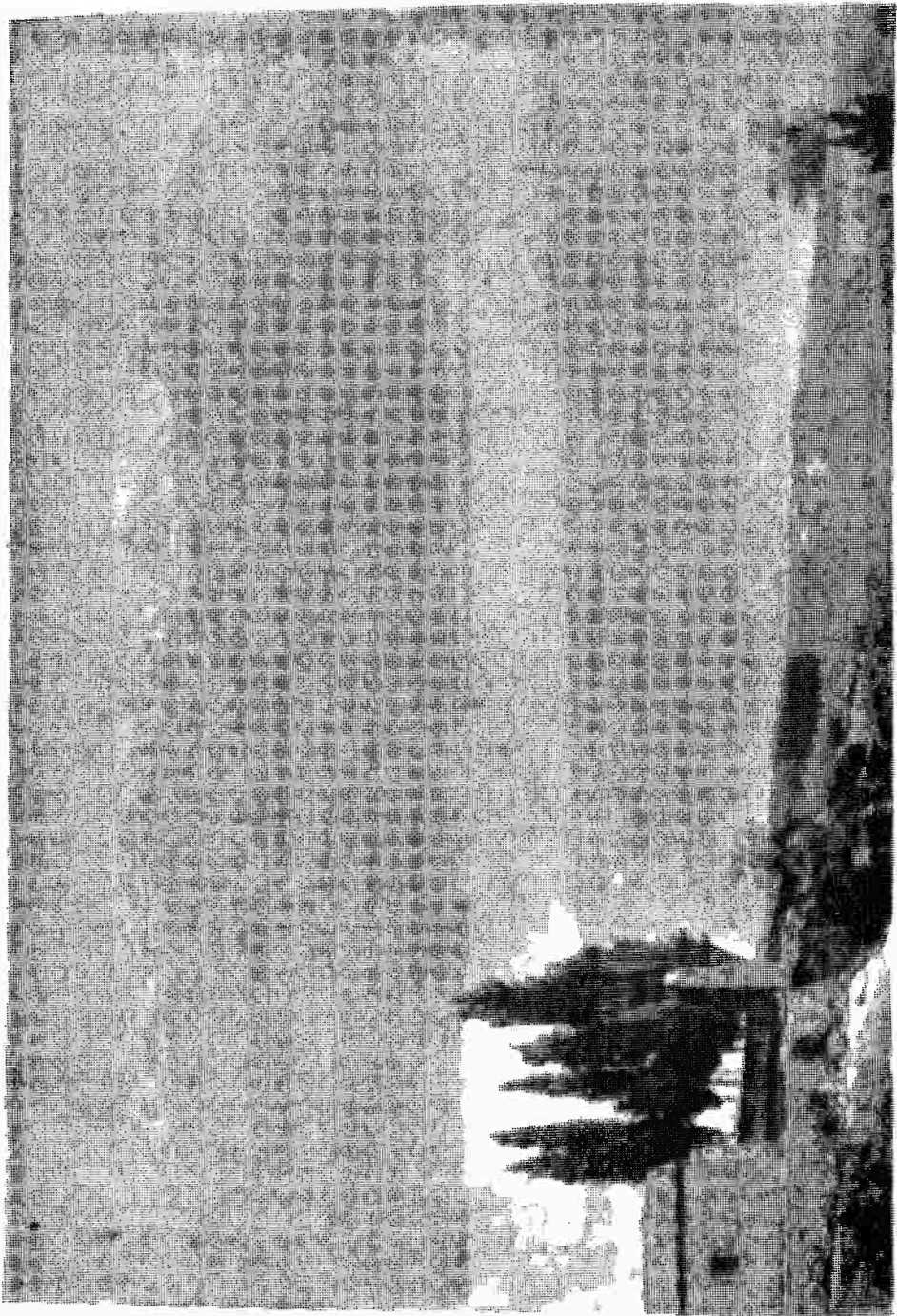


٢٦ « الملك الكاهن » أو « الأمير ذو زهور الزنبق » في كنوسوس ، كريت . . نقش
جصي ملون ، بعد ترميمه (حوالي ١٦٠٠ قبل المسيح) .



٢٧ - باب اللبؤات في ميسين .









٣١ طريق اليهودات في ليتوون ديلاوس : القرن السابع

قبل المسيح .



٣٢ - مشهد وليمة هيراكليس عند افريتيوس . رسم ذو طابع كورنثي (القرن السادس قبل المسيح) . متحف اللوفر .

تشقت من اللغات الشرقية ، والاغريق يعتبرون جيغيس الليدي المستبد الاول لانه كان أول ملك غير شرعي . ويبدو ان بعض مدن آسيا الصغرى لقتت العالم اليوناني امثلة اللجوء الى الاستبداد . وكان هنالك مستبدون يدعمهم أو يفرضهم الاجانب : الملوك الليديون وداريوس الاخميني . وتسلم غيرهم السلطة في صقليا أو رستخوا اقدامهم فيها، باستثمار تهديد العدو الخارجي للمدينة . ويحملنا كل ذلك على الاعتقاد بان نظام الاستبداد يحمل طابعاً غريباً عن الذهنية اليونانية . فان هذا النظام ، في الواقع ، يتناقض ومفهوم المدينة نفسه القائم على مبدأ المساواة بين مواطنين احرار لا فرق بينهم إلا في المقياس الوصفي ، وبالتالي في العدد . وهذه النزعة ، الملموسة حتى في الارستوقراطية ، قد افضت من قبل الى زوال الملكية . ولكن مهما يكن نصيب هذه الملاحظات من الصحة ، فان امتداد نظام الاستبداد ونجاحه يميزان ، مع ذلك ، القسم الثاني من العهد القديم ، أي من منتصف القرن السابع تقريباً حتى نهاية القرن السادس . ولا شك ، والحالة هذه ، في ان الاستبداد قد قابل واقعاً داخلياً لم يستطع الاغريق انكاره .

لقد برز في كل مجتمع وفي كل زمان رجال استسلموا لطموحهم نحو السلطة وشغفهم الفطري بها وتخلتوا بقوة الجاذب والسحر الضروريين لاستمالة الانصار المتحمسين . وان المجتمعات الشرقية نفسها قد عرفت الاغتصابات من قبل . ونحن نرجح ان عددها قد يرتفع كثيراً لو قدر لنا ان نعرف تاريخ هذه المجتمعات معرفة أعم وأوفى . ولكن الرجال فيها راقبتهم السلطة عن كשב وحالت دون طموحهم وتحسهم . وقد قامت فيها ايضاً صلة بين الالهة والسلطة ، مما حمى هذه من المغامرات الجريئة . أما في اليونان فقد احرزت نجاحات اكثر عدداً ، مما يثبت وجود نزعات فردية اعمق منها في الشعوب الاخرى التي لعبت دورها حتى ذلك التاريخ . فالحضارة اليونانية هي الاولى التي استلغمت فكرة « الانسان المتفوق » الذي يفضل معاصريه مهارة وسعادة . قد يثير هذا القول دهشة وعجباً ، لأن الرأي السائد هو ان الحضارة اليونانية لا تتميز عن حضارة العهد الكلاسيكي الذي توصل الى حجب هذه الفكرة . ولكنها حجبته حجباً فحسب دون ان تزيلها . فقد ظلت هذه الفكرة كامنة في الحضارة اليونانية ثم ظهرت مرة اخرى ، بقوة نادرة ، في الحضارة الهلينية . ومن حيث انها قد برزت من قبل في العهد القديم ، فلا ريب في انها انطوت على فردية عميقة الجذور في السيكولوجية اليونانية .

وكانت الظروف ، على كل حال ، مؤاتية جداً حينذاك . فالاضطرابات منهجية الاداء لم تهادأ وعمله السياسية والاجتماعية اتاحت لذوي الحزم ان يبرزوا في صراع الاحزاب . فأفادوا في آن واحد من عيساء المعتدلين ونخاوفهم ومن غرارة الطبقات الاجتماعية الدنيا في السياسة . وكانوا ينتمون في الغالب الى الارستوقراطية . ولكن الارستوقراطية المتحرزة والمترتبة ، لم تكن لتساندهم بكليتها ولمدة طويلة . ولذلك فهم لم يكتنوا احقادها ، مؤثرين على نقبض ذلك ، التعرض لعدائها ، باستثناء فترات تقارب قصيرة الامد فرضتها عليهم الانتهازية . وقد اعوزهم

العطف الشعبي للاستقرار في الحكم الذي عنى ، علياً ، استلامهم القلعة والعيش فيها مواطنين بحرس من المرتزقة . فليس من النادر اذن ان يكونوا تزعموا الحزب الثوري قبل تولي الاحكام . ولكنهم ، اذا ما استقرت الاحوال ، يظهرون ، بالفضل ، بمظهر المحكّمين المصلحين ، رغبة في طمأننة المعتدلين . فينزعون السلاح من ايدي المعتسفين ، ويحرضون ، ما امكن الحرص ، على العمل بموجبيات الدستور ، ويقتصرون ، بالاستناد الى نفوذهم الشخصي والى نفر من الرجال المخلصين ، على القيام بمراقبة فعالة لحسن سير كافة الاجهزة السياسية . وقد سموا ، في الحقل الاجتماعي ، وراء معالجة اكثر الآفات ظهوراً ، بفضل حجز ممتلكات خصومهم العنيدين ، اي بعض أسر الاشراف . ولكنهم يكتفون باعتماد التدابير الجريئة التي تخدم انصارهم قبل غيرهم . اما البرنامج الثوري فقد لفه النسيان . فالالغاء الوحيد للدين الذي وصلت اليه اخباره - ولعله مجرد تخفيف عن طريق اسقاط قيمة النقد - لم ينهض به مستبد ، بل مشرع يوناني هو صولون . اما اعادة توزيع الاراضي بصورة شاملة ، فلم يجرؤ احد ، لا مشرع ولا مستبد ، على التوغل فيها . لذلك فان الانتهازية والمصلحة الشخصية هما اللتان سيرا على المستبدين . وبالتالي ، ارتبط هذا العمل بصفتهم الفردية وبالظروف المحلية . ولكن القوى المتشابهة التي واجهوها املت عليهم مواقف مشتركة .

كان لبعض هذه المواقف اثر حاسم في تطور الحضارة اليونانية . ففرّج المستبدون الكربة عن صفار الفلاحين وجعلوهم اكثر استقلالاً حيال ذوي الاملاك الواسعة في جوارهم ورفعوا مستوى حياتهم المادية . واذا ما استندنا ، في حكمنا ، على اثينا ، نرى ان هذه النتيجة الاخيرة قد احرزت بفضل تشجيع زراعة بعض الاشجار المثمرة ، كالكرمة والزيتون ، التي ثبت ان انتاجها ، في هذا المناخ ، افضل من انتاج الحبوب . وكان صولون ، قبل « بيسيستراتوس » ، قد وجه الزراعة ، في منطقة اثينا ، شطر هذه الناحية . ثم جاء بيسيستراتوس وسلك الطريق نفسه ، حتى انه سلّف المالكين الصغار بعض الاموال . وقد توصل المستبدون ، في المدرن ، الى التوفيق بين نزعتهم الى النفوذ الشخصي وبين تصميمهم على تهدئة من خابت آمالهم بايجاد العمل لهم . ولذلك نراهم يتمهدون بلاطاً بهجاً ، ويحمون الادباء والفنانين ، وينمون الاعياد الدينية ، ويحققون الاعمال الكبيرة في البناء والتجهيز ، ويدعمون التوسع الاقتصادي .

اجل ، لم يفلح احد منهم في تأسيس سلالة تدوم طويلاً ، في حال انهم ، ولا ريب في ذلك ، قد استهدفوا هذا المطلب . فلم تتجاوز اسرة واحدة من اسرهم الجيل الثالث ، حتى في افضل الظروف مؤااة . وقد كان لانهارهم اسباب متنوعة ، عرضية او خارجية في اكثر الاحيان . بيد ان هذا الانهيار قد وافق تياراً عاماً : ففي السنة ٥١٠ لم يبق مستبد واحد في اليونان البلقانية ، كما زال المستبدون الاخرون ، في صقليا ، بعد ذلك بجوالي خمسين سنة . وقد اصدر عليهم الحكام والفلاسفة احكاماً قاسية . وقد وسّم فلاسفة الاخلاقيات كلمة « مستبد » ببدول

ازدراقي ، بينما لم يميزها من قبل ، اذا وجد التمييز ، عن كلمة «الملك» ، سوى فكرة الاغتصاب .
فدلّت في النهاية ، على الحاكم الفرد الذي يعتمد العنف ويحتقر القانون ، على نقيض من لا
يستهدف سوى الخير العام والعدالة .

ولكن الاستبداد سواء كان شجبه مشروعاً ام لا ، قد افضى ، حيثاً وجد ، الى الاسراع في
تطوير المدينة نحو نظم سياسية واجتماعية لن يلبث المستقبل القريب والبعيد ، ان يعممها ايضاً .
لم تزل النظم في آخر القرن السادس متنوعة جداً .

الوضع في آخر العهد القديم
ولكن يجب ان نستثني سبارطة . فهي ، وان كانت نقطة الانطلاق
فيها مماثلة لما في سواها ، - وهذا غير محتمل - قد عرفت تطوراً خاصاً جداً . وهي تفتخر
بتميزها الذي لا مرأى فيه . اجل نحن نرى في كريت اثرًا لنظمها الاجتماعية ، لا سيما تلك التي
تولي الدولة حق المراقبة على تربية وحياة مواطنيها الجنود . ولا يتنافى مبدأ هذا الحق ومبدأ
المدينة اليونانية بوجه عام . ولكن استخدامه في سبارطة قد ارتدى طابعاً من العنف يضيفي على
هذه المدينة مظهراً فريداً .

ففي كل مكان آخر تترك الدولة ، كدولة ، حرية أوسع للمواطنين . ولكن الا يخضع هؤلاء
لتأثيرات قوى اخرى ولضغط الجماعات التي ينتمون اليها لاعتبارات اخرى غير صفتهم كمواطنين؟
ثم من هي الدولة ومن هي الطبقة الاجتماعية التي تستطيع اخضاعها لنفوذها المسيطر ؟ ان محاولة
الاجابة عن هذين السؤالين تضعنا وجهاً لوجه امام آراء مختلفة تكاد لا تحصى ، ولكننا نترأى
منذ الآن اتجاه التطور المقبل .

لا يزال عدد من المدن محتفظاً بحياة ريفية بحتة ، بعضها على الطراز القديم يتحكم بها اشراف
مقتدرون ، وبعضها الآخر تعيش فيها طبقة من الفلاحين تتمتع بقسط من الحرية أوفر . فحيثما
تطور الاقتصاد ونمت الصناعة والتجارة ، تعذر على ارسوقراطية النسب ان تبقي على امتيازاتها
القديمة وتوجبّ عليها رفع عدد الحظيين . وقد اقدمت على ذلك إما اختياراً وإما قسراً . ولكن
هذا التوسيع كان متفاوتاً ، فلم يستفد منه ، نارة ، إلا ذوو الثروات المنقولة ، فانضموا منذ ذاك
الى الاشراف ووقفوا الى جانبهم في وجه مطالبات الطبقات الشعبية . ففي ميله *Mile* مثلاً ، وطيلة
ستين سنة في أول القرن السادس ، اصطدمت فئة « أولئك الذين يركبون البحر دائماً » أي محبزي
المراكب . وقد اشرك ، نارة اخرى ، اعضاء الطبقة الوسطى في الحقوق السياسية . وقد مارس
الفقراء انفسهم ، احياناً ، بعض هذه الحقوق ، واننا نشاهد ، اذ ذاك ، قيام مؤسسات تنفرد
بها الانظمة الديموقراطية ، في كيتوس مثلاً منذ السنة ٦٠٠ قبل المسيح ، وفي أثينا بعد ذلك بزمن قصير .

خلال القرن السادس ، برزت اثينا ، في الواقع ، بروزاً ملموساً . وليس هذا
تقدم أثينا التأكيد نوعاً من تقدير الشيء بعد حصوله أو وهما جرتنا اليه وفرة نسبية في

المعلومات . فقد بدأ التطور فيها بعد مدن كثيرة غيرها ، ولم يتحرك شيء فيها ، على هذا الصعيد ، قبل السنوات الاخيرة من القرن السابع . ولكن الحركة فيها كانت اكثر عمقا وسرعة ، فحققت في قرن واحد نتائج أهم منها في أي مكان آخر .

تبدل الاقتصاد في الدرجة الاولى . فتكونت طبقة ثابتة الاركان ومستقلة اقتصاديا قوامها فلاحون من اوساط الناس ينتجون غذاءهم ويبيعون النبيذ والزيت والثمار والبقول . وفي اسواق حوض البحر المتوسط ، احتلت صناعة خزفيات اثينا المركز الاول . وسبق ذلك ان نخر البحر اسطول تجاري . وضرب المقد بوفرة ، منذ ذاك التاريخ ، واكتسب شهرة طيبة بررتها قانونية ورنه وارتفاع عياره من الفضة . ثم ان تقهر المدن اليونانية في آسيا الصغرى ، على اثر الفتح الفارسي ، الذي أصبح امراً مفغولاً بعد ان قمع داريوس الاول ثورتهم ، قد افسح مكاناً أخذت اثينا تحتله ، على صعيد التجارة في البحر الايوني والعلائق ببلدان البحر الاسود ومصر والغرب . واذا لم تبسط بعد سيطرتها الاقتصادية ، فان انطلاقها قد برزت منذ الآن .

ورافق هذا التطور الاقتصادي تطور اجتماعي وسياسي . فنذ السنة ٦٢١ حتى السنة ٥٠٦ ، كانت شرائع « دراكون » و « صولون » ، واستبداد بيسيستراتوس وأولاده ، وشرائع « كليستين » ، بمثابة اوتاد رُسمت بها بسرعة طريق طويلة تترامى في آخرها امكانات وآفاق كلىة الجدّة . ومما هو اهم من ايجاد بعض الاجهزة السياسية ، ان يحدّ المجال القانوني والاجتماعي للديموقراطية كما سيفهمها الاغريق . ولم يُقص الاشراف عن السلطة ، بل انهم سيقدمون لاثينا ، طيلة سبعين سنة بعد ذلك ، خيرة حكامها : ميلتيادس وتيمستوكلس واريستيدس وكيموث وبريكليس نفسه . ولكننا نعتقد ، على قدر امكانية الحكم في هذه الامور ، انهم مدينون بتولي السلطة الى صفاتهم الشخصية قبل كل شيء آخر . ولعل يجوز الاستنتاج ، حيال هذه القضية ، ان الشرائع قدمت الاعراف والتقاليد ، لان الشرائع لم تتركس سلطة الاشراف قط ، واذا تبقى هنالك من امتيازات ، فانما هي امتيازات واقعية فحسب ، وليست بعد امتيازات قانونية . وهكذا فقد شقت الطريق لارتقاء طبقات اجتماعية جديدة تتولى ادارة الدولة وسيتم الى هذا الارتقاء بعد موت بريكلليس مباشرة ، اسم الدبّاغ كليون .

وقام ايضا ، منذ دراكون ، قضاء جنائي رسمي . ثم جاء صولون فتبسط فيه . وبلاضافة الى ذلك اعطى صولون حق الشهادة لمن لم يرزق ولداً شرعياً ، وشجع تجزئة الثروات العقارية ، وحظر المظاهرات الصاخبة في الجناز . وحقق كليستين اخيراً الاصلاح الحاسم بان اوجد ، بموازاة توزيع المواطنين القديم المبني على النسب ، سلسلة جديدة من الفئات البشرية على أساس اقليمي : عشر قبائل ومائة « ديموس » تقريباً . ولم تعتمد الدولة الاثينية ، بعد ذلك ، في تأليف كافة اجهزة الحياة السياسية ، سوى التقسيم الكليستيني .

لقد اوحى هذه التدابير كلها تصميم واحد : انتزاع الدولة من قبضة العائلات الكبيرة بالانتقاص

المنظم المرسوم من امتيازاتها وتلاحمها الداخلي. فوسعت الدولة سلطاتها على حساب هذه العائلات، لا سيما بإنشاء القضاء والجيش، والاسطول بعد ذلك، فلم تمد الدولة حرماً لها. ولكن الطريقة التي سير عليها لتحقيق هذا التحرير قامت - ولم يكن بالإمكان أن تقوم على غير ذلك - على تحرير الفرد من تضامنه الوثيق مع الفئة التي ادخله نسبه فيها. وقد هدفت الدولة، من وراء ذلك، إلى أن تجعل من الإنسان مواطناً لا عضواً من أعضاء العائلة. ولعل ما يجب معرفته، بعد أن ساعدته على امتلاك هذه الحرية، هو ما إذا كانت ستجيز له استخدامها على هواه أو ستحاول قيادته وتوجيهه أو ستنوء عليه بسلطانها. ولكن طرح هذا السؤال سابق لأوانه. فالشيء المهم الآن هو حقيقة تحرير مزدوج يبدو مظهره المترابطان كنتيجة لتطور واحد: تقهر التوزيع الاجتماعي القديم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشرط الأكبر من هذا التطور قد تحقق في اثني عشر منذ الآن، ويكفي الاستمرار فيه دون التهرب من ذنبه. وقد قدمت اثنا عشر، في عملها هذا، مثلاً ستسير عليه كافة المدن اليونانية. وسيكون لسحر مثلها قوة لا تقاوم، لا سيما وأن اثنا عشر، في القرن التالي، ستتمتع قوتها العسكرية والسياسية وستحتل، في الوقت نفسه، المرتبة الأولى على صعيد الفكر والجمال حيث تكتفي الآن بأن تبقى مع سواها على مستوى واحد.

٢ - التطور الأدبي

لم يكن التطور الأدبي في العالم اليوناني، طوال هذا العهد أقل عمقاً أو أقل تحضيراً للمستقبل. ولكنه يبدو أكثر تعقيداً، في أسبابه وخطوطه العامة والأشكال التي اتخذها، من التطور الزمني.

لعب النمو الاقتصادي دوره بفعل الثروة التي وفرتها والصلات التي عرّاهما التطور الأدبي أوجدها أو وثقها بحضارات أخرى لا سيما الحضارات الشرقية. وكانت بمثابة على الحضارة اليونانية التي هي آخر ما جاء إلى حوض المتوسط الشرقي أن تفيده من الاختبارات والتحقيقات التي كدستها حضارات أرسخ منها قدما وأوفر ثروة وأسبق فناً وتقنية. فاقترنت عنها الكثير مما سبق وأثرنا إليه. ولا حاجة بنا الآن لأن نجتمع هذه الاقتباسات في لائحة طويلة كي ندلل على أهمية مجموعها. وقد درج المؤرخون منذ زمن بعيد على الانتقاص من مدلول القول المشهور «العجوبة اليونانية» بحصر هذا المدلول في تأويل الإغريق لما تسلموه من الغير، وقد يتمتع بعضهم عن استعمال هذا التعبير إطلاقاً.

ولكن هذا لا يعني وجوب التسليم لسراب الشرق، لأن الشعب اليوناني، في أعماقه، غني بالمكانات المميزة التي يمكن التعرف إلى القسط الذي أدته دونما عناء. فليست الأرستوقراطية القديمة، كما رأينا، لمائة من الاجلاف، بل هي تستهدف بلوغ مثل أعلى في الحياة الفكرية والفنية تدرجت نحوه، مع الزمن، طبقات اجتماعية كثيرة. وقد اثبت المستبدون أنفسهم، باهتمامهم لنفوذ بلاطاتهم ومدنهم، أنهم استهدفوا بلوغ هذا المثل أيضاً. لا شك في أنهم اقتدوا

بالسلاطين الشرقيين ، لا سيما الليديين ، أقرب الماوك في الزمان والمكان ، الى العالم اليوناني الذي عرفهم معرفة تامة دون غيرهم . ولكنهم صمموا ايضاً على ان يتفوقوا ، بهبء وسجلال حياتهم ، على اشهر الارستوقراطيين ثروة وسخاء ، متبنين على غرارهم ، المثل الهوميروسي الاعلى الذي يجعل منهم «رضعاء زفس» يملكون قصوراً غاية في الزخرف ويحسنون وفادة الشعراء المغنين . ثم اذا نظرنا الى الشعب اليوناني كمجموع ، توجب علينا الاعتراف ، بما يتجلى به من جرأة فكرية ورغبة دائمة في الاستطلاع واهلية لخلق كل جديد ومن ضمن الاحترام المتطير للتقاليد . ويمكننا رؤية هذه الحرية الفكرية في التقلبات التي طرأت على تنظيمه الاجتماعي والسياسي . وهو لم يتوان عن التجديد حتى في النطاق الديني الذي يتمصف بالجمود أكثر من غيره .

ولكن هل كانت الذهنية اليونانية واحدة يا ترى؟ يغرينا جيداً ان نرى فيها نزعتين متزاحمتين : الاولى ذات منطلق بسيط سليم وتقف على رصين متناهي ، والثانية ذات جمال يدغدغ بتأثيره الحواس والشهوانية . فلا مرء في ان هاتين النزعتين ، الاولى والثانية ، موجودتان في الحضارة اليونانية . ولكن غالباً ما جعل المؤرخون من تراحمهما الصفة المميزة للعهد القديم ، وهو عهد تأسيس وتقدس وتردد ؛ فقابلوا القساوة الحازمة البارزة في التيار «الدوري» بالسحر الحلال والطلاوة النسائية في التيار «الايوني» ، الى ان جهامت اثينا ، في فجر العهد الكلاسيكي ، وحقت جمعهما في تيار واحد . لا ريب في ان تأثير الشرق الذي استهوى الاغريق بثبات يوضح خطوطاً كثيرة في التيار الايوني . ولا ريب ايضاً في ان الكلام ، عن هذا التمييز انما يصح عن الفن خصوصاً ويستأزم بعض التبسيط . فالمدينة الدورية الاولى ، سبارطة ، قد تأثرت الى حد بعيد بجاذب الشرق ، خلال فترة طويلة على الاقل . اما ايونيا الاسيوية ، فاذا صح ان فيها ينم عن رغبة في الافئدة المتأنتى ، فقد كان لها فلاسفتها وعادواها . لذلك لا يجوز الكلام عن «الايونية» و«الدورية» إلا بكل حكمة ، اذ ان الاولى والثانية ، على كل حال ، لا تمثلان بالضبط النزعتين اللتين ستظهران بوضوح ، في عهد لاسق ، في تطور الحضارة اليونانية .

تبدو الديانة كعنصر وحدة في المعالم اليوناني المقسم مدناً عديدة . ولكن التنوع الديني
الآلهة الذين عبدتهم ينلسبون الى مصادر مختلفة . فبعضهم استوردتهم الهنود الاوريون : آلهة السماء مثلاً ، ولا سيما زفس ، إله النور والزويمة . وتجمع البعض الآخر من الارث الايجي : آلهة الارض ، كاثينا وديميتر . وجساء غيرهم اخبرهم من الخارج : من اسما كافروديت ، أو من تراقيا كأريس أو ديميتريوس . ومن العسير غالباً تبيان هذا المنشأ لان هذه العناصر قد اختلطت ببعضها اختلاطاً غريباً . فقد احتفظ احياناً بذكر حدث اعتصام . وهكذا فان ابولون الذي جاء من آسيوس قد وضع يده على معبد «دلمبي» المحروس للإلهة الكريكية العظيمة . واعتُمد الصهر احياناً أخرى ، اما باعتقاد اوجه الشبه في اختصاصات الآلهة وامسها بطريقة أكثر بساطة تقضي بان تعزى للاله الواحد شخصيات آلهة مختلفين : وهكذا فان الحصان يشير الى الإله الشمالي في بوزايدون ، بينما يشير الخطاف الثلاثي الشوكت والسلطة على البحر الى

الإله الجنوبي . ووزع الآلهة أخيراً عائلات مختلفة هي نفسها معقدة التركيب . وقد تم كل هذا العمل في الوقت نفسه الذي تكوّن فيه الشعب اليوناني ، فلا نعرفه ، إذن ، إلا بواسطة نتائجه . وقد اكتمل في أوائل القرن الثامن ، حيث انتصر تشبيه الآلهة بالإنسان أيضاً ، فلم يبق للأصنام والحيوانات ، إلى جانب الآلهة ، سوى قيمة الرموز أو الخصائص .

تتضح إذن حقيقة مجهود قديم مثمر استمر في العهود اللاحقة ، فيرى هيرودوتس أن الشعراء القديمين هوميروس وهيزيود ، قد « حدّدوا نسب آلهة الإغريق ، ووزعوا عليهم صفاتهم وخصوا كلّاً منهم بأجاده وصلاحاته ، ورسوموا صورهم » . وفي الواقع كان للشعراء أثر بعيد في الديانة اليونانية . فإليهم يعود الفضل في أنهم اختاروا ، من الكثرة الأولى ، آلهة كباراً يحملون أسماء عالمية الشهرة ، ويتحلون بشخصيات مميزة ، ولهم عائلتهم وتاريخهم ، وانتظموها مجتمعة على غرار المجتمع البشري . وقد ذهب هيزيود إلى أبعد من ذلك ، بأنقطاعه عن إدخال الآلهة مباشرة في أوساط البشر ، وبالتشديد على دورهم كحراس للآداب ، وحتى بتأليه بعض التجريدات الأدبية كالعدالة (ديكي) والمنافسة (ايريس) ؛ وغالباً ما كانت هذه الشؤون غريبة عن القصائد الهوميروسية .

ولكن هذا المجهود لم يكتلّ قط بالنجاح التام . فكان في الواقع لكل معبد إله الخاص به المتميز بأحد الفوارق أو أحد النعوت أو إحدى الأساطير المحلية . وقد ارتضى المؤمن بهذا التمييز البالغ لأنه يطلب عوفاً واضحاً مادياً جداً . وقد بقي دائماً للطقوس نصيبها الهام أيضاً . فترى ، والحالة هذه ، أن نقل الديانة إلى الصعيد الروحي كان وقفاً على نخبة فحسب .

لماذا أحرزت بعض هذه الطقوس مزيداً من النجاح وصادفت قبولاً
الطقوس مكونة الوحدة :
وتأييداً ؟ إن تضامن الشعب بكليته قد اتضح أخيراً بالاشتراك في
المبادرات
الاحتفالات العامة . وهذا التضامن أبعد من أن يكون شاملاً منذ البداية ، لا بل نحن نستطيع تتبع تدرجه الصاعد من خلال اتساع هذه الاحتفالات نفسها . ولكن ، من حيث أن التضامن السياسي المقابل لم يحرز أي نجاح ، يتوجب علينا الاعتقاد بأن طبيعة هذه الاحتفالات استجابت ليل عميق في النفوس .

وانما المقصود هنا الألعاب الموروثة فكريتها ، دونما ريب ، عن الكريتين . ولكننا نرى بجلاء أن نجاحها يتفق والمثال الأعلى للإنسان كما تراءى للأذواق الأرسوقراطية . فهو يدعو كل فرد لأن ينمي في شخصه ما يمكن أن يميزه عن غيره . وانما اللعب مباراة تتجلى فيها صفات الفرد وتفوقه على أمثاله . ولكن ما يلفت النظر هو تلك المشاعر والفكر التي تلبس هذه الفردية وتحد من نتائجها . فهناك الفكرة الدينية أولاً : يقدم المتبارون مجهودهم قرابين للاله الذي يعين من يتقبل قربانه بالرضى ، بإيلائه النصر المبين . وهناك أيضاً الفكرة الأخلاقية المرتبطة بالأولى : فالإبعاد يصيب الخداع وخارق القدسيات والقاتل ؛ أما المكافأة ، وهي تاج من أوراق الشجر ،

لئليس لها من قيمة مادية . وهنالك اخيراً فكرة المدينة : فهي تذيع الى جانب اسم المنتصر ، سم وطنه ، وتفسر الاكرام الذي ينال المواطن من وطن يقاسمه مجده .

نحن نجعل كل شيء عن كيفية تكوّن هذه الفكر وهذه المشاعر . ولا نرى سوى توسع اطار هذه المباريات المطرد . فان اشهرها واقدامها ، على الاطلاق ، مباريات اولمبيا التي جرت كل اربع سنوات في واد صغير الى الشمال الغربي من البلوبونيز ، اكراماً لزهس الاولمبي . ولعلها تقرر للمرة الاولى في السنة ٧٧٦ ؛ وتكشف لنا لائحة الفائزين عن اتساع اشعاعها المطرد : الجوار القريب ، ثم البلوبونيز ، ثم اليونان البلقانية ، ثم آسيا ، واخيراً المستعمرات الغربية . وتكشف لنا ايضاً عن الاطراد في ارتفاع عددها وتنوع العابها : سباق الركض ، ثم سباقات القوي الاخرى ثم سباق العربات . وعلى غرار مباريات اولمبيا تنظمت مباريات اخرى ، على مقربة من معابد اخرى ، في توارينخ مختلفة . ومن اكثرها رواجاً ما اقيم اكراماً لبوزايدون في مضيق كورنثوس ، ولزهس في نيميسا بين كورنثوس وأرغوس ، ولابولون في دلفي . وقد جمعت مباريات دلفي بنوع خاص بين سباقات القوي والسباقات الموسيقية . وقد وضع مثل هذا البرنامج المتنوع ، اكراماً لابولون ، في جزيرة ديولوس الصغيرة الواقعة في وسط السيكلاد ، وهي الجزيرة التي ابصر فيها النور . ولكن ديولوس لم تجذب اليها عملياً سوى الايويين دون غيرهم .

نطّمت هذه المباريات لمناسبة عيد الاله المحلي . وكان لكل اله عيده اي «بانيجيريا» التي تعني بالاشتقاق «الاجتماع العام» الذي يضم مؤمنيه ، وهم قديتفاوتون عدداً وقد يأتون من قريب او بعيد . وكان لبعض الاعياد الاخرى مبارياتها ايضاً : كعيد «أثينا» إلهة مدينة اثينا مثلاً الذي ظهر قبيل منتصف القرن السادس مع تطواف الـ «بيلوس» . ولكن عدد الاعياد التي تترأى فيها المنافسة على الفوز ما زال ، حتى ذاك العهد ، محدوداً جداً . ولكنه سيرتفع فيما بعد دون ان يؤثر على مكانة الاعياد الاولى الوحيدة التي بلغت مرتبة يمكن وصفها باليونانية الشاملة . وقد بلغ سحرها الراج ، لا سيما سحر مباريات اولمبيا ، في اواخر العهد القديم ، وكانت شهرتها ادبية اكثر منها مادية . وقد قضى العرف ، في مرحلة انتقال المتبارين والحجاج ، ان تعلن في كل مكان «الهدنة المقدسة» التي يتقيد بها الجميع خير تقيد . وقد حق لكل يوناني حر ان يشترك في هذه المباريات . فكانت هذه المباريات اذن مظاهر جليلة لحضارة يونانية قائمة بذاتها تتصف بالخيلاء في وحدتها المتسامية فوق التقسيمات السياسية وفي تناقضها مع «البرابرة» اي مع الاجانب . وعممت ممارسة الموسيقى والتمازين الجسدية والعري نفسه الذي اهتم الفنانين ، واثرت بالتالي على تطور الحضارة اليونانية . ولكنها لم تخلق فيها تيارات جديدة بل اقتصر على تقوية بعض تياراتها القديمة . ولم تقو قط على القضاء على تيارات اخرى . فان صفتها اليونانية الشاملة مثلاً لم تتغلب يوماً على انقسام المدن .

لم يختص كل ذلك ، شأن الذبائح ، الا بالطقوس . اما الديانة ، على نقيض ذلك ،
التصور فقد تأثرت ، في النصف الثاني من القرن السابع وفي القرن السادس بقوى بعيدة
القمر يكتنفها الغموض . فاضطرت لان تفسح مكاناً لتصوف جهله الشعر الهوميروسي جهلاً تاماً
ولم يتخذ ، في شعر هيزيود ، سوى شكل ميول ادبية رفيعة . ولم يكن فيها حتى ذلك العهد ما
يشبع الميول العاطفية عند الكائن البشري . ولم تفتح عبادة الاموات نفسها ، التي كانت تمارس
بالولائم الجنائزية وبالافراط من شرب الخمر على المدفن الذي يعلوه اثناء دون قعر ، الا افاقاً كالحة
عبوسة ؛ ولم يكن استحضار ارواح اكثر الاموات شهرة ، كما تصفه الاوديسه ، ليطمئن احداً
عن حقيقة الخلود الكثيب والواهي الذي ينتظر الآدميين في عالم مسا تحت الارض . فالتقوى
البشرية تتطلب حقائق اخرى ، حتى ولو اقتضى ذلك موجبات اخرى . لذلك فهي قد استقبلت
بحرارة الآراء والمراسيم الجديدة او المحددة المستوردة من تراقيا او آسيا والمربطة بالتالي بالتوسع
أفق الاغريق الذي يدينون به لأسفارهم ونشاطهم الاقتصادي .

كان لديونيسوس مكانه الخاص في جميع مظاهر هذه الذهنية الجديدة فغدا الوارث الرئيسي
لهذه الحركة الواسعة . فتارة عمل مباشرة على امتداد عبادته : وهكذا فان الاستبداد الاثيني
جعل من أعياده اعياداً رسمية ونظم الاحتفال بها ، وهي التي ستنبثق عنها التمثيليات المسرحية .
وأشرك نارة اخرى في عبادات او عقائد انتشرت حينذاك . فكان له مثلاً مكان في معبد آلهة
« الفيسيس » الذي وجب توسيعه بفعل ازدياد عدد المؤمنين الذين استهدفوا ، من وراء الاطلاع
على اوليات علم « الأسرار » ، المزيد من الاطمئنان حيال الحياة الثانية . وقد خصته ايضاً
الأساطير الاورفيوسية بالمركز الاول .

شرت هذه الأساطير جميعيات انتسبت الى اورفيوس المغني التراقي . وقد روت كيف ان
ديونيسوس قطعته التيتان ارباً ارباً ، وهم الشر المتجسم ، وكيف ان أباه زفس قد بعثه حياً .
اما الذين نشروها ، تدفهم الى ذلك غير تبشيرية تتنكر للحدود السياسية والاجتماعية ، فقد
استخلصوا منها مثلاً وعبرة . فوعدوا بالسعادة الابدية كل من يسلك سبيل تقشف اخلاقي
وجسدي نصحووا به الى كافة البشر الذين سيفصل الموت أرواحهم عن أجسادهم النجسة . ولا
ريب في ان الاورفيوسيين قد جمعوا في صفوفهم دجالين وعرافين يجوز الاستبداء بهم . ولا ريب
أيضاً في ان السحر كان له مكانه في كتبهم المقدسة . ولكنهم جاؤوا بأراء جديدة كثيرة كان
نجاحها في البدء باهرأ ثم تدنى طيلة العهد الكلاسيكي ، على الرغم من استمرارها المستتر ، الى ان
عادت وظهورت في العهد الهليني ، فلم يكن ممكناً ، في الواقع ، ان يبقى دون اثر الوعظ الديني
الذي لم يفرق بين بونافي و « بربري » اي بين الخير والعبس ، والذي لفت النظر الى تركيب
الانسان ، في ان واحد ، من عنصر فان ومن روح ترتبط بمبدأ آخر ، وتكلم عن دينونة إلهية
تزال الروح بموجبها ، بسبب مسؤوليتها على الارض ، اما ثواباً واما عقاباً . وحين زالت الجمعيات

الاورفيوسية السجسة ، استمرت نظرياتها موسعة وموضحة مفهوم الانسان الذي اعتمده الاغريق حتى ذاك التاريخ .

يبدو ان هذا التيار التصوفي الذي دفع بالمتصوفين الى الانخراط أحياناً ، قد كان متافات النيب خير معوان لنجاح متافات الغيب . وتعود هذه المتافات الى ما قبل الاغريق الذين ورثوها عن الحضارات السابقة . غير ان القصائد الهوميروسية تكاد لا تتكلم عنها ، خاصة بالذكر الاحلام والدلائل الطبيعية عن المستقبل التي فسرها العرافون . اما بعد ذلك فوجود الكثير من هاتفي الغيب يصبح امرأ واقعاً وطيداً يستشدهم الأفراد والدول في مواضع مختلفة فيجبون بطرائق متنوعة ، وما العرافة الملهمه سوى إحدى هذه الطرائق ، ولا يرتقي الشك الى نجاحاتها خلال القرون السادس . غير ان الانبياء في الشطر الآسيوي من العالم اليوناني ، هم غالباً من الرجال ، بينما هم كثيراً ما ينتمون الى النساء في الشطر الاوروبي ؛ ففي كلاروس في ايونيا يتصرف الكاهن تصرف العرافة في دلفي . فيمكن بالتالي ان تفسر بعض المراسم ، على هذا الصعيد ، كمظهر من مظاهر تيار ديني قديم تأصل في القرن السادس وقبل به الاغريق اخيراً بعد ان لطفوه بعض التلطيف .

أما الإله الذي كثيراً ما رافق اسمه فن العرافة هذا فهو ابولون الذي لا تقع مراكز الهاتين بالغيب باسمه تحت عدد أو حصر . وفي أواخر القرن السادس ، ذاعت شهرة بعضها حتى بسين الشعوب البربرية ، فيستشير الملك الليدي كرىزوس عدداً منها ويعترف داريوس الأول بان ابولون « قال للفرس الحقيقة الكاملة » . وبين هذه المراكز التي كان ابولون سيدها ، تمثل دلفي أشهرها فحسب . وهو قد طرد منها بالقوة إلهة « الأرض » الكريئية . ولكنه اضطر لان يفسح في معبده مكاناً متعاضداً لديونيسوس . ولا ريب في ان هذه الشراكة قد خدمت نفوذه الذي بلغ الأوج قبيل الحروب الميديه . غير انه لم يستخدم هذا النفوذ على الصعيد السياسي او انه اساء استخدامه . أما على الصعيد الديني فكان هذا النفوذ أكثر فعالية بتنظيمه للعبادات والماراسم أو بإطراء الطهارة الجسدية ، منسجماً في هذا مع الاورفيوسية . وقد تطرق الى الصعيد الاخلاقي نفسه ؛ فعبرت النصوص الفلاهرة في معبده عن بعض اصول الحكمة ، كما ان هاتف الغيب ، في بعض الحالات ، يوصي باحترام اليمين وتأدية واجبات الضيافة .

ولكن كل ذلك لم يدم طويلاً . فلم يلبث عمل متافات الغيب ان انحصر في النملساق الزماني . وسيقتضي الديانة اليونانية تطوراً روحياً آخر كي تصبح قابلة لان تنفذ اليها النظريات الاخلاقية .

لم تعرف الحياة الفكرية ، لزمان طويل ، طريقة تعبير ثابتة غير الشعر . فالوزن الشعر الملحمي يسهم الحفظ عن ظهر القلب . واذا افترضنا ان الكتابة عرفت قبل اعتماد الابجدية المشتقة عن الابجدية الفينيقية ، فان استعمالها لم يترك أي أثر ولم يتح له الشمول إلا في عهد متأخر نسبياً . ثم ان هنالك مصطلحات ، بعضها ديني على الأقل ، قد لعبت دورها ، وهي

تتراءى في بعض الاوزان الشعرية الخاصة وفي استعمال لغة صناعية وصيغ كلامية ، لا سيما في اقدم القصائد الشعرية عهداً ، أي الملحمة .

يمثل هذا الشعر الملحمي عظمة اوائل العهد القديم .

فهناك أولاً هوميروس بل بالأحرى القصائد الهوميروسية . فالتقليد اغنى بالمناقضات حول الشاعر الذي نسبت اليه من ان نستطيع ان نستخلص منها فارقاً واحداً لا عدة فوارق . ثم ان التشريح الذي اخضعت له هذه القصائد منذ اكثر من قرن ونصف لم يفض بعد الى نتائج اجمع عليها العلماء . « فالقضية الهوميروسية » ليست وشيكة الحل والحالة هذه . غير انه يبدو من الامور المفروغ منها ان الالياذة والوديسه عبارة عن قصائد مجموعة مكرسة في الأصل لحوادث متفرقة ومختلفة ومؤلفة على حدة . ويصحّ ذلك بصورة جليّة عن « غضب اشيل » في الالياذه و « عودة أوليس » في الوديسه مثلاً . ومن المفروغ منه ايضاً ان هذه القصائد قد مضى عليها زمن مديد وادخلت عليها بعض التحويرات ، قبل ان تجمع في كتاب واحد ، كما ادخلت عليها بعض التحشيات حتى في تاريخ نشرها في اثينا ، بامر المستبدن ، في النصف الثاني من القرن السادس . وفي ما عدا ذلك فالخلافاث القائمة بين الاختصاصيين كثيرة جداً ، ولكن القسم الاكبر منهم في الوقت الحاضر يعتبر ان الملاحم ، في جوهرها ، قد صبت في قالبها في القرن الثامن ، على ان الالياذه قد سبقت الوديسه بنحسين سنة تقريباً . ولكن مهما يكن من أمر هذه الارتيابات ، فانها لا تنال من صنعة العمل الذي يعود الفضل فيه ، باستثناء بعض القطع الرائعة ، الى الجامع أو الجامعين . ففي الملحمتين انتظمت الحوادث التي غلب عليها التشويش في البدء ، حول شخص وعمل : اوليس نفسه يروي اسفاره ، وما مغامراته سوى تحضير لمأساة تأره النهائية . واذا ما اضعنا الى ذلك ان الملاحم الهوميروسية تنطوي على ديانة وميثولوجيا اضفت عليهما سحرها الشعري ، وتحدد علماً اخلاقياً أو أقله مثلاً بطولياً للانسان ودستوراً للأدب والانس والمجاملة ، نرى كيف انها ، حتى آخر التاريخ القديم ، استطاعت توفير أساس تربوي لفتيان الاغريق .

أما هيزيود ، في أواخر القرن الثامن ، فوجه واضح الخطوط لا يمكننا وصفه بالتاريخي لان واحداً من الشعراء الاغريق لم يعيش الحياة المتواضعة القاسية التي عاشها بعيداً عن القصور . وهو قد اعتمد اساليب وأوزان الشعر الهوميروسي ولكن بذهنية اخرى وبتسليط تخيلته على معطيات الواقع اليومي ومعطيات التقوى الراسخة : فلم يكن أدب مدن آسيا وقصور العظماء ، لا ولا السخرية الباسمة ليعرفا سبيلاً الى مسكن هذا الفلاح المتواضع الذي يبسالغ في التردد الى المعابد المجاورة . ولعل ما يحرّك منا الشعور فيه هو فظاظته الخرقاء نفسها ، بالاضافة الى اهتمامه للأخلاق والعدالة ، وثقته بالآلهة لضمان قصاص الأشرار ، واستجارته بالخرافات لتفسير وجود الشر على الارض ، ومواعظه الحازمة في سبيل عمل الانسان وواجبه وكرامته . وفي

« نسب الآلهة » ، حيث أنه يحاول تنظيم تسلسل الآلهة ، ببعض هذه الآراء والنظريات . ولكنها تبرز مجموعة بشكل أثقل جفاء في كتابه « الأعمال والأيام » . وقد عرف الفلاح في هذا المؤلف المستعذب على ما فيه من خشونة ، ان يبقى ريفياً على الرغم من تجليه شاعراً ومهذباً ، ووصف جهود المالك الصغير وارشاداته التقنية ومعتقداته وخرافات واضطرابه لان يوفق بين حياته وقوى الطبيعة .

نشأة الشعر الغنائي ونضارته
اصيب الشعر الملحمي بذبول سريع . ولكن شعراً آخر قد نشأ
حاملًا ، في الوقت نفسه ، طابع الموسيقى الشرقية وطابع فردية
الاغريق : الشعر الغنائي .

أما بصدد الموسيقى ، أدوات وأنغاماً ، فالعلائق بليديا التي هي نفسها وريثة فريجييا ، كانت حاسمة بلا مراء . واذا نسب الاغريق هذا او ذاك من الاكتشافات الفنية لبعض مواطنيهم ، فليس من شأن ذلك ان يخفي واقع استعارات تقدمتها بلاريب متروكات الحضارة الكريتية . وقد استقر كل ذلك في التركة اليونانية بدخوله في طقوس الاحتفالات الدينية . اما الغناء الجوقي الذي ترافقه الرقصات والحركات الراقصية التي تقوم بها فرق من الرجال والفتيات والاولاد فلم يلاق في أي مكان ما لاقاه من اكرام واعتبار في سبارطة . وغدت الموسيقى مادة اولية في منهج تربية الفتيان الاغريق ، حتى سن الثلاثين احياناً .

وبالاضافة الى ما اوجده الاغريق لشعرهم الغنائي من اوزان كثيرة ، فقد اقدموا على تسخيرها للتعبير عن مشاعرهم الشخصية ولاتقاء تهم المتهمين ولتوجيه التهم لغيرهم ولحاولة الظهور دونها حياء وللتغني باحقادهم واهوائهم وآلامهم وافراحهم . ووجدت ، منذ القرن السابع ، المراثي والاناشيد والقصائد الانتقادية خاضعة باستمرار للتحسين والتكليف ، فنظمتها شعراء عديدون لم يصل اليها منهم ، لسوء الحظ ، أية قصيدة كاملة . وقد لجأ المشتري صولون الى الشعر لدعم عمله السياسي والاجتماعي ، وأفرغ ثيوغنيس الميغاري جام غضبه شعراً ، ووجدت سبارطة في بعض الاجازب افضل شعرائها في حقل التربية المدنية . بيد ان غالبية الشعراء الغنائيين ، الذين ولدوا أو عاشوا في مدن آسيا الصغرى أو في الجزر ، تغنوا بافراح وحرارة الحياة الشهوانية التي فتحت لها فيها ثروة الشرق القريب منها . وأشهر هؤلاء الشعراء هم ألقيا والشاعرة صافو الميديليمنيان في أوائل القرن السادس اللذان لا يعرفان لضبط النفس من معنى ولا يتقيدان في هيجانها بمصطلحات أدبية نافذة : فصافو تتظاهر بشهوة معثرة منذ التاريخ القديم ، ويعجد ألقيا موت مستلبد مكروه بنداء الى معاقرة الحمر .

نشأة العلم والفلسفة
كان الشرق اليوناني اذن مهد الشعر الغنائي ، وكان أيضاً مهد العلم والفلسفة . كانت الحضارات الشرقية السابقة ، اقبله بصدد العلم ، قد جمعت المواد الاولى . ولا ريب في ان الاغريق استعاروها عنها . فان ايرونيا ، حيث ظهرت هذه الانظمة

العقلية ، كانت على اتصال بكافة الشرق . وقد أهلها موقعها الجغرافي لان تطلع على جميع تحقيقاته . فمن طريق لبيدا التي خدم ناليس' الميلي سيدّها ، لا عن طريق رحلته الى مصر فقط التي ينسبها اليه التقليد ، تمكن من معرفة علم الفلك وعلم الحساب الذين اشتهر بها كهان بلاد ما بين النهرين . واذا ما عدنا بالذاكرة الى هؤلاء ، ان يدهشنا ان يكون تنبأ بكسوف الشمس الذي حصل في ٢٥ ايار من السنة ٥٨٥ . ويمكن القول نفسه عن التقنية ايضا . ويمرّ الى ناليس انه اشرف على حفر احدى الترع لتجفيف مسيل احد الانهار . وبنى مهندسو ساموس رصيفاً في البحر بلغ ٣٦ متراً ارتفاعاً و ٣٦٠ متراً طولاً لتوسيع المرفأ في الجزيرة ، وحفروا قناة لجر المياه بلغت ١٠٠٠ متر طولاً . ولست هذه الاعمال الباهرة التي بدت للاغريق وكأنها معجزات لا تصدق سبقتها منذ زمن بعيد اعمال مماثلة في الشرق . ولم تكن الطرائق التقنية المعتمدة ، من حيث مبدأها على الازل ، الاكتشافات بالمعنى الصحيح . اما التجديد الحقيقي فهو انصرافهم ، بمجهود منطقي ، الى مباشرة تنظيم هذه المعارف علماً مجرداً . فحيث لم يتجاوز الشرق التجربة والاختبار ، ولدت الهندسة مع ناليس ، كما قيل ، فدفع بها بيثاغور الى الامام ، اذا لم يكن هو نفسه قد اكتشفها ، وأوجد في الوقت نفسه علم الاعداد .

ولم يكن دور الايونيين في الفلسفة اقل اهمية . وكان بمكنة الشرق هنا ايضا ان يوفر لهم بعض الشيء ، اي نظرياته في تكوين العالم التي انطلقت جميعها من مبدأ اولي بغية تحليل خلق العالم . ولكن المبدأ ، وفاقاً لتعليم هذه النظريات ، لم يتميز عن الاله ، كما لم يتميز الخلق عن ظهور الالهة الآخرين . اما فضل الايونيين فهو انهم واجهوا المعضلة نفسها منعتين من الفكرة الدينية ومستندين الى عقلهم فحسب . ولكن قد يصح ان يقال في هذا العقل الذي لم يزل بعد في عهد الفتوة انه انما يستلزم من تلخيصه بنفسه . فحاول ناليس وتلميذه اناكسيمندروس واناكسيمينوس اكتشاف المبدأ الواحد الذي ادت تحولاته الى ولادة الاشياء والكائنات . واقترح بعدهما هيراكليت الافسسي ، وهو ايوني ايضا ، عنصراً اولاً هو النار ، ولكنه اضاف الى نظريته هذه فكري الصراع الدائم والتطور المستمر . وقد ذهب بعض الايونيين الى ايطاليا الجنوبية ينشرون فيها تعاليمهم ؛ فأسس كسينوفانوس الكولوفوني ، الهارب من السيطرة الفارسية ، مدرسة ايليا ، كما أسس بيثاغور الساموسي ، الذي رفض الخفض للاستبداد ، ندوات للتلاميذ في مدن خليج طارنتا حيث استمر تعليم نظرياته حتى القرن السادس .

اما شهرة بيثاغور العلوية فيفسر ها غنى مذهبه حيث رافق تعليمه حول النفس وتعاقب تجسدها التامم على علم اخلاقي وقانون حيائي ، بينما كانت فلسفته ، في سعيها لاكتشاف سر الكون الذي وجدته في تماثل الاعداد ، مشاراً للابحاث العلمية . ولكن حتى ولو لم تعش طويلاً مدارس الفلاسفة الايونيين الذين لم يفرقوا بين بحوثهم وبين العلم الذي انقطعوا اليه ، فانهم اول من اطلقوا الفكر اليوناني وشق الطريق امام اقداماته المقلدة .

اصبحت الحياة العقلية عند الاغريق ، منذ آخر العهد القديم ، احدى حياة اولوية الفكر اليوناني عقلية في العالم المتوسطي . ولم تكن اية حضارة شرقية حينذاك لتتمكن من الإتيان بشيء حي جديد تنافسها به . كان كورث الاخميني قد طلب طبيب عيون من فرعون مصر ، ولكن خلفه الثاني داريوس قد استغنى في بلاطه بالطبيب ديموسيديس الكروثوني الذي سبق وتنازعت مدن يونانية عديدة والذي توسط لديه ، بعد ان شفا من التواء في مفصله ، خدمة للطباء المصريين المحكوم عليهم بالتعذيب تكفيراً عن جملهم . فيتضح من هذه الروايات ان انتقال الاولوية منذ ذلك العهد قد غدا نتوماً .

انزل الاغريق الشرقيين عن عروشهم ولكنهم لم يهملوا الاستفادة من اختباراتهم والمشاواتهم ؛ لابل انهم سيستمررون زمناً طويلاً في الافساد منها ، بقدر تمكنهم من انهم ان معرفتها . ولكنهم ينهبون فيها نهجاً آخر مستير العقل البشري ، بقية منطلقهم الفطري ، في الطرائق الجديدة التي تترامى امام فضولهم النهم . وليس من اتفاق الصدق ان يظهر ، في العهد نفسه وفي ايونيا نفسها ، علماء الجغرافيا والتاريخ . ولا يزال هذان العلمان متعثرين وملبثين بالاساطير عند واضعيتها ، « الناثرين » الذين كانوا اول من اقسدم على التخلّص من الايقاع الشعري . ولقد احدهم ، هيكلاته الميلي ، قد وضع المبدأ التالي : « انشأ ما يلي لانني اعتبره حقيقة » اذ لم يكن ان روايات الاغريق المتعددة جديرة بالسخرية . فاذا كان فضله لا يراي فضل مواطنيه العلماء والفلاسفة ، فانه ، باسناد ابحاثه الى النقد اسندوها هم الى العقل ، اما يشق الطريق معهم . امام خلفائه .

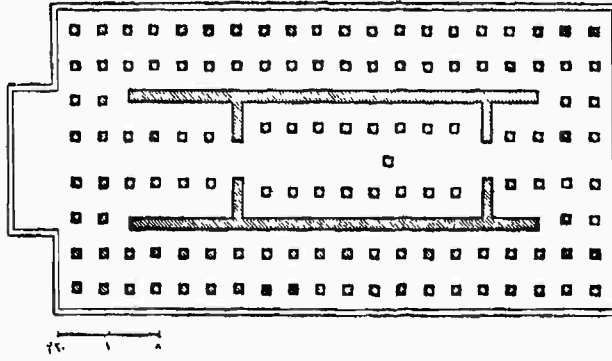
يصبح القول نفسه في الفن الذي انتهى ، خلال هذا العهد ، الى انهاء طرائقه الهندسة المعمارية وتأمين نموه المقبل .

تنحصر الهندسة المعمارية القديمة في المعبد ، باستثناء بعض التجميزات الصغيرة . اليونانيون والاقنية وتزيين الاماكن العمامة والشوارع في المدن المتوسطة المشيدة دون تصميم سابق . ويشق المعبد ، المسمم كسكن للإله ، اشتقاقاً مباشراً من الميخارون الميسيني : سقف ذو منحدرين وأعمدة امامه وقاعة في الوسط يوضع فيها التمثال . ولكن قياساته قد تجسدت منذ القرن السابع بعد ان اعتمد الحجر مادة للبناء . فأحيط بعصف من الاعمدة وزيد على طولها بحيث تخصص في آخره مذخرة للكنوز ، وزيد في عرضه ايضا بحيث اسند السقف الى صفوف من الأعمدة .

فهل من اثر للشرق في مجهود التوسع هذا الذي لم يبلغ حد الضخامة ؟ ان البون ، على كل حال ، يبقى شامعاً جداً . ومن الافضل ان نفكر بالحري بازدهار المدن وتفاخرها وتنافسها . فالأغريق الغرب لا يعترفون بأية افضلية لاغريق الجزر والساحل الآسيوي ، لا سيما وان معرفتهم بأفضلية الشرق الضخمة نفسها لم تكن لتؤثر فيهم . وفي هاتين المنطقتين المتقابلتين من العالم اليوناني ،

تقاربت قياسات المعابد المشيدة حينذاك : ١١٢م × ٥٦ م في ساموس و ١١٣ م × ٥٤ م في سيلينونته من اعمال صقليا . وقد حدث احيانا ان بعض المعابد لم يكتمل بناؤها أو تأخر وقتا طويلا بسبب نفاد الموارد المرتقبة . اما اليونان الاوربية فلم تسوغ لنفسها هذه القياسات ، فاكثفت الاستبداد الاثيني ، على الرغم من رغبته في التظاهر بالتقوى والقوة ، ب ١٠٨ م × ٤٤ م لمعبد زفس الاولبي الذي أسسه والذي لم يكتمل تشييده إلا بعد ذلك بستة قرون ونصف القرن .

لقد برهن الاغريق على كل حال ، في حساب القياسات لأدق عناصر المعبد ولإحكامها ، عن شعور بالانسجام والتوازن يلفت الانظار ولا يتوفر لغيرهم . الى ذاك العهد يعود قيام « النظامين » : الدوري والايوني . ويتصف الاول بأنه أقل تكلفاً وأكثر نقاء واداء ، ويحتفظ



الشكل ٢١ - معبد ارميس في افسس

شرع في تشييد هذا المعبد الكبير في القرن السادس .

اسم الملك الليدي « كريزوس » في الانفاق عليه . ازدان بالنقوش ٣٦ عموداً من اعمدته المائة والسبعة والعشرين .

في الحجر بذكري الخشب ؛ عموده لا يرتكز الى قاعدة ويعملوه تاج بسيط جداً ؛ وفوق صف الاعمدة ، تمثل المجموعات الثلاثية التجويف تنوء روافد الصحن المعترضة ، وتمثل اللوحات الرخامية المنقوشة المسافات الجوفاء التي تفصل بينها . أما النظام الايوني فأوفر زينة واكثر أناقة وتجيلاً ، كما يليق بمنطقة اشتهرت حضارتها بالرفقة والذوق ؛ عموده اكثر رشاقة ويرتكز الى قاعدة ويعملوه تاج منقوش نقشاً حلزوني الشكل ؛ ويمتد فوق صف الاعمدة افريز طويل يتسع للنقش . ولكن مهما كان النظام ، فقد قامت نسب دقيقة بين قطر العمود وارتفاعه وفي غلظه المهدّب وعدد تجويفاته المستطيلة والمسافات الفاصلة بين الاعمدة . فكل شيء في المعبد اليوناني يخضع ، منذ اواخر القرن السادس ، لحسابات دقيقة يحريها مهندس متمكن في آن واحد من علم الحساب ومن دستور للذوق على بعض التجرد .

أسهمت النقاشة مع الهندسة المعمارية في تزيين المعبد . فقد وضع هذا الاخير امام النقاشة النحات مساحات حجرية يجب تزيينها بالرسوم . ومن الشذوذ عن القاعدة ما حدث في افسس ، عند اعادة بناء معبد ارميس الذي حرص كريزوس على الاشتراك في اكلافه ، من

تزيين قسم من الاعمدة بنقوش ناتئة في قاعدته السفلى . فان هذه الطريقة ، المستوحاة مباشرة من الشرق ، لم تعرف الشمول . ولم يفسح المعبد اليوناني مجالاً للنقوش إلا في أمكنة حددها تصميمه الهندسي نفسه . فاتفق النظامان على ان يكون هذا المجال جبهة المعبد المثلثة الامامية وجبهته المثلثة الخلفية وآثروا ، بالتفضيل على النقوش الناتئة ، وضع تماثيل لا ترى ظهورها أمام الجدار الداخلي . اما في الامكنة الاخرى فقد وجب استعمال النقوش الناتئة : فأفسح لها النظام الدوري مستطيلات لوحاته الرخامية والنظام الايوني افريزه الطويل .

وضعت الجبهات المثلثة والواح الرخامية الفنان امام مشكلات دقيقة بسبب قياساتها المزعجة . فحيال الجبهات وجب عليه ان يوفق بين النقوش وبين الزاويتين الجانبيتين الحادثتين جداً ، مما فرض عليه الانتقال التدريجي من الاشخاص الواقفين في الوسط الى الكائنات النائمة او الزاحفة . وحيال مجموع اللوحات الضيقة وجب عليه تصميم مشاهد صغيرة تملأ المساحة ضمن الاطار دون ان تتخطاه . فيمكننا والحالة هذه تتبع جهود النقاشين الذين كانوا مترددين 'خرقاً' في البدء ثم استخلصوا من الصعوبة نفسها قوانين الهامهم وفهم .

اما حيال الافريز الايوني فكان عمل النقاشين اكثر سهولة لان المساحة تتسع لاشخاص عديدين . ولكن وجب عليهم توزيعهم دون تشويش وفاقاً لموضوع عام ، وتنويع الاوضاع والمشاهد دون ضرر بالفكرة العامة . فتوصلوا الى ذلك بعد جهود ناشطة مستوحين ، من جهة ثانية ، طريقة الرسم على الأنية الذي استازم هو ايضاً توزيع المشاهد في عصابات دائرية . ومنذ الربع الثالث من القرن السادس ظهرت في «مذخرة» معبد دلفي ، التي شيدها اهالي « سيفنوس » القائمة على جزيرة والغنية بمناجها الذهبية ، مشاهد ميثولوجية وبطولية عظيمة ، كصراع الآلهة والجبارة او كاجتماع الآلهة الاولمبيين لتتبع تطورات معركة امام طرواده . وتستمر معالجة هذه المواضيع على افريز المعبد حتى العهد الهليني نفسه . وتبدو الاوضاع منذ ذلك الحين بتنوعها . والدالة العائلية فيها - يد تلقى على ركبة زفس ؛ ابولون يلتفت الى شقيقته ارميس التي تلامس كتفه بيدها - وفتنتها وطبيعتها ، خليفة بالمهد الكلاسيكي نفسه .

اما صناعة التماثيل المستقلة عن البناء فقد كانت هي ايضاً مرتبطة بالديانة لان كل المواضيع التي عاجلتها تحمل طابع الديانة وتمثل الآلهة ومقدمي القرابين والحيوانات الرمزية . وقد تعلمت في البدء على الفن الشرقي ، ولا سيما المصري ، الذي اعتمدت بعض مصطلحاته ، فبرز خرقها في جمود الاوضاع وفقدان النسبة الصحيحة في القياسات . ولكن النجاحات ، في هذا الحقل ، كانت حاسمة ايضاً . فتحرر الفنانون من الانقياد للتقليد دونما توغل في الحركة العنيفة ، اذ قد حالت دونها الديانة وحسبهم المهف بالنبل والتناسق . غير ان الجسم لم يخضع لقاعدة التناسب ، مع ان درسه التحليلي الدقيق ، الذي سهله ميل الى العمري فرضته التمارين الرياضية ، قد اتاح بروز العضلات تحت الجلد . ثم دب الحياة في الوجه رويداً رويداً ، فانتهى وقار التماثيل الدورية

الاولى وتصنع التماثيل الايونية وتكلفتها وابتسامتها المفنجة احيانا الى الانصهار في التعبير عن مشاعر رقيقة يهتز لها الناظر .

كان نتاج هذه المرحلة التفتحية القصيرة ، في النصف الثاني من القرن السادس وفي السنوات العشر الاولى من القرن الخامس ، غنياً جداً بالتحف المختلفة . وقد اختلفت آراء الاختصاصيين حول نسبة هذه التحف الى فئة معينة ، وحول المكانة التي تحتلها فيها . فكان ان اسهمت حدة الجدل في ذبوع شهرة عدد كبير منها ، لا سيما بعد الاثر الذي احدثه اكتشاف كثير من القطع الاصلية - بينما هي مادرة جداً في المهود اللاحقة نفسها - اثناء اعمال التنقيب في قلعة اثينا ودلفي وديلوس : فكان لأعمال « البرابرة » هنا نتائج خيرة . ولا ريب من جهة ثانية في الاثر البعيد الذي تتركه ، على كل حال ، نشأة فن عظيم يفوز ، في اقل من قرنين ، بالسيادة الفنية ويحقق ارتعاش الحياة . ومن حيث ان هذه التحف ، البديعة احياناً ، اكثر من ان تعد وتستعرض فاننا نكتفي بالإشارة الى روائعها التالية : اللوآت الدابلة المنتصبة على قوائمها الامامية الضخمة والمصطفة خطأ مستقيماً في رصيف على مقربة من بحيرة ديلوس المقدسة ؛ ابو الهول في دلفي الذي اجتمه « الناكسيون » في اعلى عمود يبلغ عشرة امتار ارتفاعاً ؛ أحصنة افريز مذخرة سيهنوس واللوحات الرخامية في مذخرة « سيكيوني » أو اللوحات الرخامية في سيلينونته حيث نصّب الهوليت الأثيني ، اريستيون .

سنتصر اذن على ايجاز تطور طرازين من التماثيل لا نغالي اذا قلنا عنها ، بقطع النظر عن مصادرها ، انها لم يتميزا عن الحضارة اليونانية ولن يتميزا عنها . وقد رأى بعضهم مرة اخرى في تضادهما ، التضاد القائم بين الدورية والايونية . ان هذا التضاد قائم بالفعل في النقاشة : تصميم أوفر منطقاً وتقشفاً وخشونة من جهة ، وأناقة اكثر لياقة ومزيد من التخث من جهة ثانية . ولكن ، بصرف النظر عن سبب هذه التحف التي تثير التكوك ، لم يقم بين فرعي الشعب اليوناني الرئيسيين حاجز فاصل محكم : فالفنانون كانوا ينتقلون حيث يطلبون والمزارات التي قصدها الاغريق من كل حذب وصوب كانت توفر الالتقاء والتجاوز . وان هذين الطرازين وما عرفاه من ازدهار متواز ليرتبطان في الحقيقة بجوهر الحضارة اليونانية المشترك .

فالطراز الاول هو الشاب العريان ، الد « كوروس » . فهل هو اولون ، أم مصارع مثالي ، أم مصارع معين ؟ لا فرق . انه يوناني بعريه التام ، على الرغم من الطابع المصري الذي يميز التحقيقات الاولى . ويمكن تتبع تدرج اكتماله في واقعه التشريحي ورشاقة قوامه ورقة عواطفه . في البدء - شأن الارغوسيين كليوبيس وببتون ، وهما مثالا حب الوالدين في دلفي - كان الجسم ربة والكتفان كتفي حمال والدرعاان قصيرين والبطن اصطلاحياً والركبتان كذلك ، والساقان مشدودين والعينان بارزتين . ثم دب في الحياة وتليّن وتفتت ، ففقدت نتوءات عضلاته خطوطها الهندسية كما فقدت مفاصله ما فيها من تبسيط ودخلت عيناه في

حجاجيها ، واستعيض عن الابتسامة الجامدة ، على شفاه « المراهق الأشقر الاثيني » وفي نظره ، بنوع من الحزن الحالم .

أما الطراز الثاني فهو المرأة الملتحفة التي أفضت الى مثال الـ « كورا » . وكان هذا الطراز قديماً ، كما يتضح من تمثال « سيدة أو كسير » المعمّاة أو إلهة ساموس ، « هيرا » ، بلباسها الطويلة المشدودة التي تتخذ ، مع ذلك اشكال الانحناءات في الصدر وفي الظهر . ولكن الانوثة تبرز بقوة وتنتصر بغلبة ثم تعتدل حياء في وفرة تماثيل الفتيات التي انتصبت في قلعة أثينا منذ القرن السادس . غير ان نجاحاً نهائياً قد أحرز ، يؤيده علم يتقدم تقدماً مطرداً ، أعني به علم اشكال الجسم التي يتهدل على استداراتها الموزونة الـ « بيلوس » الطويل أو الغلالة القصيرة . ولكن هنالك علوماً أخرى لا تزال تتمتع في تردها . فكان الاهتمام بالزينة الزاهرة يفرض غنج الخضاب ، وتنوع الألوان في الالبسة وأقسامها المطرزة ، واحكاماً معقداً في مطاويها المتضادة الانحناءات ، والغنى في الحلى . ثم تنظّم هذا الاهتمام ، فغدت الالبسة اكثر تواضعاً في اللون والزينة ، وزاد فيها التهدّل ، وقلّت المطاوي ، وخفّت تجعد الشعر ، وأصبح الزي اقل صخباً منه في أيونيا . وحدث التبدل نفسه في الوجه حيث انخفضت الوجنتان وزالت الابتسامة المسائرة وحل محلها تحفّظ « الحاردة » الوقور : التي يرجّح انها غير حاردة ، على كل حال . فليس يعد من أمر مشكل : حتى ولو كانت هذه التماثيل مصمّمة بغية تمثيل الفتاة كنموذج للجنس اللطيف ، فإن لكل تماثيل ، مع ذلك ، شخصيته الطبيعية والأدبية .

وهكذا فقد يكون الشرق الذي ساعد الخطوات الأولى ، قد وجهها ايضاً . ولكن النقّاش اليوناني ، بتحريره جسم وروح الـ « كوروس » العاري ، وجسم وروح الـ « حثورا » التي سينتهي خلفاؤه بتعريفها ايضاً ، قد قام بعمل يفوق مجرد تحسين التقنيات القديمة : فهو ، شأن الفيلسوف والعالم ، قد خضع لمثل أعلى جهله الناس تحت سموات أخرى .

طراً على صناعة الخزف ايضاً مثل هذا التطوّر الهام والحاسم . ولم يكن في صناعة الخزف الحقيقة ليتاح إلا للمعجزة تطوير زخرف هذه القطع السريعة العطب والمصنوعة من مادة حقيرة ، اذا نحن لم نعتبر ان الاهتمام التجاري ، حيالها ، منذ ان نمت الملائق البحرية ، قد رافق الاهتمام الجمالي . اما نتيجة الابتكار ومراعاة الذوق العام والتأثير عليه باستباقه أحياناً ، فكانت ، في احوال النجاح ، زيادة في المبيعات وخسارة للمنافس .

لم يعرف القرنان التاسع والثامن هذه المشاغل لأن التصدير ما زال خلاهما على نطاق ضيق . غير ان وحدة العالم اليوناني قد ظهرت مع ذلك في المبادئ الزخرفية المشتركة : كان ذلك عهد النمط الهندسي . ولا يمت هذا النمط بأية صلة الى التبسيط الذي تسيطر فيه الاضلاع المنحنية كما درج في آخر العهد الكريتي وفي العهد الميسيني ، ولكنه يذكر بوشى تتداخل فيه الخطوط والزوايا بحيث لا تترك مكاناً خالياً منها . أما روائعه فهي الأواني الكبيرة العائدة الى مقبرة

الـ « ديبيلون » في أثينا ، التي تتعاقب على بطونها ، بين الخطوط المتقاطعة والمينيات والمثلثات واشكال الساعات الرملية والخطوط المعوجة والصلبان المعقوفة ، مشاهد لاشخاص عديدين ، مبسطين عن قصد لا عن خرق ، يتصفون بطول الساقين ونحافتها وبقوام الزنابير وجذوع مثلثة الزوايا ، ولأحصنة قوائمها شبيهة بقوائم الجراد الكبير وأعرافها منتفشة تليكات .

ثم ظهر ، في القرن السابع ، « النمط الاستشراقي » المعاصر لازدهار أيونيا وللأواصر الوثيقة بشرق غني بالزخرف التزييني وبالحيوانات والمسوخ أيضاً . فعالج الرسامون على الغرين المواضيع التي عالجها نقاشو المعادن على الذهب والعاج ، وهي مواضيع نباتية كالبردي والمان ، وخطوط متشابكة ورسوم وردية الشكل وخطوط حلزونية ورسوم سغفية الشكل ، وكلها مشتقة من الجذوع والازهار . وهي مواضيع حيوانية أيضاً بعضها خيالي كأبي الهول والعنقاء المغربية والتنين والحصان المجنح وبنت البحر ، وبعضها واقعي كالأسود والثيران والكلاب والخنزير البرية والأوعال والوز ، وكلها منقولة عن تقاليد الشرق الخفية ، فرسمت بخطوط واشكال أنيقة توافقت بخيلة شعب لم تبد له الحياة بحفة مهما كان من قساوتها . وما لبثت رسوم الاشخاص ان تسربت تدريجياً الى هذه المواضيع . فبرهن الخزافون الكورنثيون بنوع خاص ، عن مهارة كبيرة بإبرازهم في هذا الفيض الزخرفي وبإظهارهم في اوضاع متنوعة وجمعهم في مشاهد مستوحاة من الميثولوجيا وبجهر شق حول رسومهم التي يصفون عليها بعض النتوء بواسطة بقع وخطوط حمراء او بيضاء . وهكذا سيطرت الخزفيات الكورنثية ، منذ اواسط القرن السابع حتى اواسط القرن السادس ، على اسواق حوض البحر المتوسط ولاسيا الاسواق الإيطالية .

بيد ان الاولوية انتقلت اخيراً الى أثينا ، المدينة بذلك الى فنانين متميزين بالاتقان والحدق والابتداع . ويعود أشهر نجاحاتهم الاولى ، « اناة فرنسوا » ، الى السنة ٥٦٠ تقريباً ، وقد رسم عليه ، في عصابة دائرية يبلغ محيطها مترين وارتفاعها ستين سنتيمتراً ، مائتان وخمسون شخصاً ناشطين في اعمالهم وموزعين على مستويات مختلفة بتنوع مدوخ . ويرمز اكتشاف هذا الاناء في اثروريا الى نهوض أثينا بمنافسة كورنثوس منذ هذا التاريخ . ولكن نجاح هذه المنافسة المستند اساساً الى الطريقة الكورنثية ، قد تركز على قاعدة اثبتت متانة حين استخدمت ، منذ السنة ٥٣٠ تقريباً ، طريقة جديدة فرضت نفسها تدريجياً ، الا في نواحي اختصاص معينة . فبدلاً من الاشكال السوداء البارزة امام خلفية حمراء ، اعتمد البرنيق الاسود للخلفية واللون الاحمر للرسوم التي امكن ايضاح التفاصيل عليها بالوان اخرى . ثم اصبحت المواضيع في الوقت نفسه اكثر انسانية : فظهرت ، الى جانب الاساطير ، المشاهد العائلية والاعمال ومشاهد الحياة اليومية في الحقل والمدينة والريف . وهكذا احرزت أثينا اولوية ستدوم طيلة العهد الكلاسيكي . هنالك اوان لم تزين باي زخرف وقعها الخزاف الاثيني ، في المكان اللائق ، بزهو له

ما يبرره . وبما لا ريب فيه ان تقدم الصناعة الفنية يلفت النظر بتناسق ونبل وبراعة الخطوط الخارجية وبميزة انواع البرنيق المستعملة . واذا ما ابتدأنا به إناء فرنسوا ، قبل غيره ، نرى ان الرسامين لم يترددوا في كتابة اسمائهم على مصنوعاتهم كما درج النقاشون على ذلك ايضا . ان توقيعهم لرمز صغير ولا شك ولكنه ذو مغزى رفيع : فالفنان يشعر بفخار بفرديته ويعبر عنها . يستلهم موضوعه بحرية ويحققه بأساليبه الخاصة لا بأساليب تقليد مفروض . وفي الواقع اخذت بعض الشخصيات ، منذ ذاك الحين ، تثبت اقدامها في هذا الفن السريع الذي يوجب ملاحظة دقيقة ويذا بارعة على السواء . وليس من اتفاق السداف ان يتوصل هذا الفنان المتحرر الى تحرير حركات الانسان الذي يرسمه والقاء الضوء على حالته النفسية ، بوضع حركة او خط من خطوط الوجه .

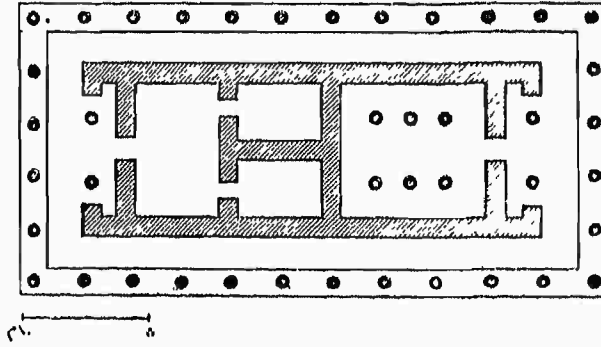
شق العهد القديم اليوناني اذن ، في كل نطاق ، الطرقات امام الكلاسيكية التي مراكز الاشعاع ستليه . ولم يتوفر لاية حضارة ، حتى ذاك التاريخ ، ان تسير ، بمثل هذه السرعة ، في رحاب تطور على هذا الشمول ، كما لم تتمحور لاية حضارة ايضا ان تحضن بمثل هذا التفوق ، وبمجاحاتها الخاصة ، نجاحات المستقبل القريب : لم ينته شيء الى الكمال بعد ، ولكن اسس الكمال قد وضعت .

لم تتساو اجزاء العالم اليوناني في الاسهام بهذه التغييرات البعيدة القعر ، كما لم تتساو في الافادة منها . ولا تزال اكثر من منطقة ، في اوائل القرن الخامس ، جامدة في تأخرها ، قابضة في وديان لا يصل بينها غير مسالك البغال ، بعيدة عن التيارات الفكرية الجديدة . ولعب غيرها ، بفضل اتصال اوثق بالعالم الخارجي وظروف أكثر مؤاناة وخدمات بعض الافراد ، دورا متفاوتة اهمية واستمرارا . ولنجمع الآن حول بعض الاسماء ، ايجازا واستنتاجا ، بعض المعلومات المبعثرة هنا وهناك في الصفحات السابقة . فمن شأن هذا التلخيص السريع ان يبين بوضوح مظهر آخر من « المعجزة اليونانية » لا يقل اهمية عن غيره ، اعني به تنوع الجهود ، ابي الحيوية والتلاحم ، في شعب لم يحل تفتته السياسي ولا منافساته الاقتصادية دون وحدته الممنوية . وقد سبق لنا ان اشرنا اكثر من مرة ، بهذا الصدد ، الى عمل المستبدن الشخصي ؛ وعلى الرغم من ان اغريق العهد الكلاسيكي قد جحدوا ذلك وتكبروا له ، فان ما تدين به هذه الحضارة اليونانية لباغثيها الاول ، في غير اشكالها المادية ، لعظيم جداً . ولكن عمل المستبدن هذا ابعده من ان يفسر كل شيء لان مرحلة الحكم الاستبدادي لم تطبع بطابعها كافة المدن الهامة ، كما ان بعض المدن التي سيطر عليها هذا الحكم ، لم تجن منه اية فائدة ثقافية . فنرا هنا ، اذن ، مهما كان من تفوق الافراد ، امام واقع آخر هو اتحاد الشعب .

لمبت دورها ايضا المعابد التي شملت شهرتها اليونان ؛ اولمبيا ودلفي لمجوع العالم اليوناني ؛ ودياوس للابونيين . فقد اسهمت هذه المزارات بقوة ، كما رأينا ، في نشر العباد القوى والموسيقى والشعر الغنائي . وكان هنالك علم اخلاق اشتهرت به دلفي قرظله سقراط نفسه ، كما ان مؤلفين قدامى

كثيرين قد رأوا في ابولون العرّاف احد المفضلين على الانسانية . وكان هنالك خاصة ، حول آلهة هذه المعابد ، تنافس المدن التقوي ، وقرابينها وابنتها المختلفة ، التماثيل والاعمدة والمذابح و«المذاخر» بشكل معابد صغيرة ، التي شيدتها هذه المدن داخل الاسوار المقدسة . ففدت هذه الاسوار وبقيت ، حتى اليوم الذي هدمت فيه ، متاحف لم تتقابل فيها السخاوات فحسب ، بل الاذواق والمواهب ايضا . وعلى هذا الصعيد ، غدت العبادات اليونانية الشاملة سببا فعلا ، مباشرا او غير مباشر ، من اسباب تقدم الهندسة المعمارية والنقاشة .

بين مجموعات المدن الاقليمية ، في هذا العهد ، يجب ان نحل ايونيا في المرتبة الاولى . فكل شيء قد ساعدها لمدة طويلة ، لا سيما قربها من الشرق . فكانت بوتقة سكب الايونيون فيها من انفسهم واخرجوا منها مزيجا مضطربا طرّقه وكيفوه لاستخدامات جديدة .



الشكل ٢٢ - معبد الهيكاتومبيدون في قلعة أثينا
يبلغ طول المعبد القديم (المشار اليه باللون الاسود) مائة قدم ، ولذا أطلق عليه اسمه . وسعه أناء
بيسستراتوس بإحاطته بالاعدة .

اما في النطاق الفني ، فان اسهام المدن في صقلها وفي ايطاليا الجنوبية يوازن اسهام المدن الآسيوية . فكان النمط الدوري في الهندسة المعمارية والنقاشة ، من حيث الحياة والصفاء ، شبيها به في البابونيز نفسها . وتوجد اهم مصنوعات المعيزة في بوزايدونيا (بيستوم) عند مدخل مقاطعة كمبانيا ، وفي سيلينونته على الشاطئ الجنوبي من صقليا . ولكن الغرب اليوناني ، خارج نطاق الفن ، لم يزل ، في اواخر القرن السادس ، في مستهل توسيع مكانه في الحضارة اليونانية ، فاقام فيه مؤسسو مدارس الفلسفة الآتون من ايونيا .

وهاجر كثيرون في الوقت نفسه من ايونيا الى امكنة اخرى ، لان العهد الذهبي لليونان الآسيوية كان قد زال عند نهاية العهد القديم . ودخلت ايونيا في سبات عميق بعد الفتح الفارسي اولا ، بعيد منتصف القرن السادس ، وبعد قمع ثورتها ثانيا ، في اوائل القرن الخامس ، الى ان ايطلتها انتصارات الاسكندر . ولكن اليونان البلقانية كانت خليقة بان تحل محلها .

كان النشاط قد دبّ فعلا في اليونان البلقانية . وليس باستطاعتنا هنا ان نحصي كافة المدن التي احتلت مقاما محترما في المجهود المشترك ، مع انه كتب لبعضها التواضع الدائم ولبعضها الآخر الالطخاط والسقوط . فعلى الرغم مما يحيط بشهرة البيوسيين من ازدراء مهين ، فقد كانوا يملكون سلسلة تماثيل ابولونية في معبد « ابولون بتوريوس » ، كما كان لهم « بنداروس » ايضا الذي تعود اقدم « عرافاته » ، اكراما لاحد النبلاء التساليين ، الى السنة ٥٠٠ تقريبا . اما سبارطة التي سيغدو اسمها في وقت قريب مرادفا للشدة والحياة الضجيرة ، فلم تنكش على نفسها قبل منتصف القرن السادس . فحتى ذلك التاريخ استقبلت الشعراء واستدعت المهندسين والصياغ الايونيين وشيدت الابنية المبتكرة ؛ وهي ستحافظ دائما على اعيادها التي تحييها بالرقص والغناء الجوقي . وكان في سيكيوني وفي ايجينا اختصاصيون في صناعة البرونز ونقاشون مشهورون . اما كورنثوس ، وان كانت صبغتها اليونانية اقل صفاء بسبب الروابط التي شدتها الى الشرق ، - بعض السراري المقدسات تكرر سن فيها لخدمة افروديت - فقد كانت لها صناعتها الخزفية ايضا . وليست هذه الاسماء سوى قليل من كثير غيرها : فلم يكن لليونان عاصمة ثقافية بعد .

مرد ذلك ان اثينا كانت حديثة العهد في هذا المضمار . فلم يدفعها الى الامام دفعا حاسما سوى الاستبداد الذي ساعدته في عمله هجرة الايونيين اليها في اعقاب استتباب الأمر للسيطرة الفارسية على آسيا الصغرى . فلبسيسستراتوس واولاده يعود توسيع معبد الـ « هيكاتومبيدون » القديم ، وتقدم صناعة الخزفيات التقني وانتشارها ، وتنظيم اعياد ديونيسوس ، ومباريات المأسى التمثيلية ، وتماثيل الفتيات العارية في قلعة اثينا ، ووضع النص النهائي للملاحم الهوميروسية . وبعد ابعاد آخر بيسيسستراتوس في السنة ٥١٠ ، لم تحدد المدينة من وثبتها الى الامام بل وجهتها فقط في اتجاه اكثر استقلالا عن الطريقة الايونية واول انقياداً لها ، لاسيما على صعيد النقاشة حيث برزت مرة اخرى الحشونة الدورية . ولكن كل هذه الدلائل عديدة القيمة والاممية ان لا يقف على التطور اللاحق . فلا مجال بعد ، في آخر العهد القديم ، للكلام عن سيادة اثينا الادبية .

فحتى تتركز الحضارة اليونانية نهائيا وتقف في وجه الحضارات الشرقية ، وحتى تغدو اثينا مركز هذه الحضارة دون منافس ، يجب ان تحدث ازمة الحروب الميديدية .